أندرية أوليفييرا

ماراثون الخلود



ترجمة
عبد الجليل العربي

دار نون للنشر

المؤلف: أندريه أوليفيرا

عنوان الكتاب: مارثون الخلود _ الطموح المأساوي لفرنسيشكو لازارو

الغلاف: DESIGN© // Teresa Cardoso Bastos

الطبعة الأولى:2016

دار نون للنشر

ISBN: 978-9948-18-849-0

دار نون للنشر

رأس الخيمة / دولة الإمارات العربية المتحدة / ص.ب ٤٠٠٤٤
www.dar-noon.com / noon@dar-noon.com

أندريه أوليفيرا

مارثون الخلود

الطموح المأساوي لفرنسيشكو لازارو

ترجمة: عبد الجليل العربي

دار نون للنشر

-١-
خلود ناعم لواقع صعب

الشّمس حارة هنا، يا لها من مفارقة، شمس حارّة في بلد بارد، شمس تسخّن الجسد وفي الوقت نفسه تثلج الأمل. أبرد قليلاً على بعد خطوات. أستعجل وكأنيّ أمشي ملتحفاً ببطانية درجة حرارتها ٣٢. كلّ خطوة منّي تضعف وتتضاءل وتهزل. تصبح مائعة وفارغة. لا أستطيع أن أتركها تختفي وتتلاشى. في البرتغال ينتظرونني عائداً بميداليّة ذهبيّة توشّح صدري. لا أتحمّل أن أسقط في السويد، يمكن أن أتعثّر في هذا الشّمال الأوروبي لكن لن أستسلم أبدا. وبعد مرور مائة سنة سيتذكّرونني «آه، فرنسيشكو *لازارو!!*» وسيحتفظ الأطفال السويديون بذكريات عنّي سمعوها من أجدادهم، وذكريات عن الألعاب الأولمبية وعن صاحب الميدالية الذهبية الأولى في أولى المشاركات البرتغاليّة في ماراثون العصر الحديث. أموت ولكن أظلّ خالدا، أنا للأبدية ولن أنتهي أبداً كما حدث في ذلك السّباق، يوم ١٤ تموز/ يوليو ١٩١٢، حيث تمكّنت مسافة ٣٠ كيلومترا من استهلاك جسمي وإن لم تأخذ منّي الروح. الروح البرتغالية، طبعا، فسيصيح هنا الستّون برتغاليّا الذين جاؤوا إلى استكهولم، لتكريم روحي بعد مائة سنة بالضّبط.

وقعت وسقطت لكنّي لم أمت. أنا خالد، أنا *لازارو*، أنا فرنسيشكو صانع العربات الخشبية، ذلك الشابّ صاحب الشّارب الذي، وبعد مرور سنتين على تأسيس الجمهورية، حمل العلم البرتغالي في السويد. «راية الباب» يا له من لقب جميل، وكم أنا فخور بأن أحمله. أنا *لازارو*، أنا خالد، أنا للأبدية. ألم تعرفوا بعد قصّتي؟ إذن، سأقصّها عليكم وأنا جالس على

ضفاف نهر التاج. النّهر الذي انطلقت منه رحلة شابّ برتغاليّ في سفينة إنجليزية لتحقيق المجد في السّويد. لن أذهب للنزهة بل سأجري وسأفوز.

-٢-

٢٢ سنة إلى الماراثون

أنا فقير ودون مستوى دراسي يذكر. عندي قليل من الملابس البسيطة والمستهلكة ولكنّي أعرف ما أريد. «ستكون شخصيّة ما»، هكذا تنبّأ لي والدي عندما كان يعلّمني فنّ قطع جذوع الأشجار وتحويلها إلى إبداعات خشبيّة إذ كنّا نصنع منها مساويك، أو طاولة سرير، أو طاولة عشاء لقاعة كبيرة لهؤلاء السّادة الذين يأتون إلينا بيضاً أياديهم ونقيّة وملفوفة في قفازات، بيضاء هي أيضا. يلبسون بدلات ناعمة سوداء أنيقة وشواربهم محفوفة بعناية فائقة. كلّ شيء لديهم مصمّم بشكل يناسب طموحاتهم. أحذيتهم لامعة برّاقة حتّى أنيّ أرى فيها انعكاس وجهي أو وجه من ينظر إليها. مطلية بشكل فائق. يا له من طلاء معجزة هذا.

هم من سادة المجتمع وأنا من الشعب، أنا *لازارو* وسأشارك في الماراثون وأجري نحو الخلود. أنا مثل هذا الخشب يمكن أن أكون شيئاً ما أو لا شيء. وأنا اخترت أن أكون كلّ شيء. أعمل هنا في محلّ نجارة في حيّ *البايرو ألطو* في لشبونة منذ عشر سنوات. بدأت العمل صغيراً وهذه حقيقة. فقد بدأت في العهد الملكي وها إني مستمرّ في نفس المهنة في النظام الجمهوري. حالياً أنا مجهول ولكن أنا ذلك الرّجل الذي سيحمل العلم البرتغالي إلى السويد. عندي بعض الأوهام ولكن أحمل أمل الحصول على معدن الميداليات اللامع. «أنتقل من الخشب إلى الذهب». «*لازارو* الذهبي». «أسرع عدّاء برتغاليّ في التاريخ». ها إنيّ أتخيّل نفسي أرسي من جديد في نهر التاج، في وسط حشد من الجماهير، وأرى زوجتي، الحامل،

تضيء نوراً إضافياً لسعادتي الكبرى بفوزي في استوكهولم، تحتضنني بقوّة بيد، وبالأخرى، تلقي سماء بالجرائد اليومية الصّادرة يوم ١٥ تموز/ يوليو ١٩١٢، حاملة العناوين التي تخيّلتها، ومن كثرتها غادرت ذهني فرأسي لا يسعها جميعاً.

-٣-
يوم الرحيل

ها هو اليوم العظيم يحلّ، أردّد ذلك بيني وبين نفسي، دون صوت، احتراماً لمشاعر زوجتي التي تجلس إلى جانبي ناظرة إليّ. في هذا اليوم، أصحو والصباح مازال يتلكّأ. أتثاءب في حين أرى من نافذتي نهر *التاج* الذي يطلّ من فوق سطوح تحوّل لون قرميدها من الأحمر الداكن إلى الأخضر بفعل الطحالب التي تكاثرت فوقها، طحالب شديدة الخضرة، تكاد تكوّن مغارة الميلاد على تلك السطوح. تشعّ الشمس في الأفق وكأنّها تناديني. «هيا *لازارو*، أقلع من أجل الحلم». ألبس بسرعة. أنادي، صارخا، زوجتي التي تعدّ شاي البابونج في المطبخ. أحبّ أن أشربه يومياً قبل أن أبدأ نقش الخشب. «إنّه اليوم المنشود»، هي حامل ومذهولة تنظر إليّ من عل إلى أسفل. تتوقّف وتنظر إليّ مرّة أخرى نظرة حازمة. الآن تعيد النظر من أسفل حتّى أعلى رأسي، وللحظات أحتفظ بنظرتها الرقيقة وهي مصوّبة نحو شاربي المصروع من التقلّبات في السرير من شدة القلق والتوتّر في انتظار لحظة طلقة بداية سباق حياتي. أقترب من المرآة، مرآتي، ونبقى ننظر لبعضنا. مستقيمة هي، لا أبتسم، ولا أشعر باللوم. أنسحب دون أن أقول شيئاً ولكن أنا على يقين أنّنا سنعود لنلتقي ثانية هناك، في ذلك المكان، في ساعة ما، في يوم ما، ولكن أتمنّى أن يكون وقتها حضوري شامخاً ومهيباً. سأذهب إلى هناك لأرفع علم البرتغال في أراضي السويد.

أغسل وجهي على عجل بالماء الفاتر المتدفّق والدافئ ربّما بسبب النّبض الذي تحسّه البلاد وتتوجّسه. «سيذهب *لازارو* للألعاب الأولمبية». تسيل خيوط الماء متقطّعة من الحنفية لتستقبلها يدا النجار في شكل

صدفة. لا تريدان أن تجعلها تسيل هدراً في المواسير السوداء المظلمة والمجهولة.

تشكرني حين تبلّل وجهي. أترك شاربي يقطر حتى النقطة الأخيرة من هذه الهبة الشفّافة. أسكب الماء على جسمي فالطقس حارّ. إنّها لشبونة في آخر أيام شهر يونيو، ألبس بسرعة، فأنا عدّاء وجئت لأجري وأسرع. ليس هناك وقت لإضاعته، فالسفينة جاهزة للإبحار. أقفل حقيبة الكرتون التي ورثتها عن والد جدّي الذي كان يعمل في الماضي في أقبية نبيذ بورتو، حيث كان يقوم بتجهيز الدنان. إنّها حرفة، على عكس بقيّة الحرف التي أعرف، صديقة للزمن، تحبّ الزّمن، تريده أن يمرّ وأن يطول، ولكن دون أن يهجر هذا السائل الثمين، الذي يجعله معتّقاً، وفريداً. سائل لا مثيل له. أخطو خطوة واحدة، أطبع قبلة على شفتي زوجتي الكريمة. بطنها في الشهر الرابع وهي ليست مستعدّة لمثل هذه السّباقات. أحاول أن أتفقّد كل شيء وأتفادى النسيان. ها هي جوارب جدّتي الجبلية، تينك القطعتين الجميلتين والمتناسقتين اللتين تتقاطعان مع حجم القدمين ولكن تصيران متناسقين الواحدة مع الثانية بعد لبسهما. في مدينة *صوبرال* دي مونت *أغراصو*، كانت جدّتي قد حاكتهما طيلة شهر كامل تقريباً. هي بارعة في استعمال إبر الحياكة، لقد صنعتهما لتدفئني في أرض السويد الباردة. أعود إلى الوراء وبين محاولة فتح وإقفال فاشلة للحقيبة أضعهما بسرعة في الداخل.

لم أخسر وقتاً بل كسبت. أقبّل زوجتي مرّة أخرى. قبلة على الخدّ، وأخرى على الشّفتين الرقيقتين والجافتين بفعل الشمس القاسية ومنعرجات الحياة المريرة. شوق بارد. وقبلة ثانية وأخرى عميقة تجمعنا مع طفل المستقبل. هو يتحرّك الآن في بطنها ويبتسم لي في رغبة استباقية لتجفيف دموع *صوفيا* السائلة على خدّها، يلوّح لي ويتمنّى لي العودة سريعاً مظفّراً بانتصار مرسوم بابتسامة بحجم المسافة بين البرتغال والسويد، وبصدر موشّى بميدالية في الخارج والداخل. ميدالية لامعة، ذهبية، ميدالية

لنا نحن الثلاثة. «أفوز أو أموت»، أعده بذلك بنظرة ثابتة. «سوف تفوز حبيبي» تردّ صوفيا بصوت عفويّ يحتفظ بتلك الكلمات مجتمعة ومرتّبة بعناية ونظام، كلمات تتدفّق من قلبها الطفوليّ لتسلّمها لي هذا اليوم، هنا وفي هذه الساعة، في هذه اللحظة الخاصّة بنا نحن الاثنين أو الثلاثة.

أطلب منك معروفاً كبيراً. «أن تبلّغي سلامي لأبويك وإخوتك. رجاء قبّليهم جميعاً وقولي لهم إنّي أحبّهم، كلّ أولئك الذين يحبّونني». أمسح دمعة أولى تنزل ببطء لتترك أثراً على وجهها الساطع بياضاً في هذا اليوم أكثر من أيّ يوم مضى. بياض شديد كأنّه خليط الكلس والجرانيت في جدران بيتنا. دمعة شاردة تنزل ثم تدور بظهرها، دون أن تنبس بكلمة. تجلس على حافة السرير، فستانها الأرجواني المتجعّد يتدلّى على الأرض المبلّطة. تسحب بيد مرتجفة علبة في شكل مكعّب مذهّب لم يمنعه الغبار من أن يشعّ لامعاً. تقف. الفستان يتمطّط طاعة لامرأة ذات عزيمة. تأتي به إليّ، ترتفع بلطف على مقربة من قلبي وتفتحه. تخرج منه صورة قدّيس. «إنه القديس كرستوفاو شفيع المسافرين». تسمك بيدي اليمنى، تفتحها وتضعه فيها. أذكر أنّ هذا الصندوق المكعّب كان يمثّل سرّاً كبيراً لي لكثرة ما كان محفوظاً هناك. تصمت قليلاً ثمّ تقول بأسلوب من يريد أن يروي حكاية لم تقع بعد، «خذه، فرنسيشكو وأحتفظ به دائماً إلى جانبك، سوف يحميك ويساعدك. سوف ينظر إليك ما دمت أنا لا أستطيع ذلك». تضم أصابعي واحداً واحداً وتغلق يدي. أضغط عليها، مفكراً فيها وفي الميدالية. أضغط بكلّ القوة التي أملك، قوّة تكاد توقف الكون عن الدوران، في تلك اللحظات التي لا تنسى، قليلة هي ولكنها لامتناهية. تنتهي عندما يسيل على خدّي وجع البعد. أغلق الباب بقوة. أنا مستعجل وأريد المحافظة على توازني وقوّتي. أسمع هتافات وأتخيّل صداها في هذا الشارع في بنفيكا، حيث يعلو صوت البندول المعدني، صوت باب شاحب ولكنّه رنّان معلناً بدء زيارات أو توديع، فرح وحزن معاً. إنّه يعلن الحدث العظيم، مناسبة عودتي فائزاً.

وأنطلق، أجري نازلاً الهضبة السفلى. «دائماً إلى الأسفل» هذا يقول لي صاحب كشك يبيع الجرائد يومياً، في هذا الشارع المنحدر، في الحيّ الذي أعرفه عن ظهر قلب منذ عمر مبكّر. الجرائد اليوم تحمل كل شيء. فيها أخبار محّدثة وتنشر إعلانات، ومقالات متراوحة الطول والقصر تقدّم لنا صورة جديدة وأسلوباً حديثاً للاطلاع على العالم واكتشافه. سأكون موضوع غلاف هذه الجرائد خلال أسابيع قليلة *أوشالا*، *أوشالا* (إن شاء الله). أتذكّر هذه الكلمة العربية التي أحبّ كثيراً استعمالها. آه! ودون أن أنسى أن آخذ معي حبّات برتقال برتغالية، الفاكهة التي مازال العرب الذين جلبوها إلى هنا ينطقون اسمها ويكتبونه بطريقة مشابهة تماما لاسم بلدنا «البرتغال». إنّه إرث تاريخي كبير أحمله معي في هذه الحقيبة. هي فاكهة لذيذة وسيتمتّع بأكلها معي الزملاء الخمسة الآخرين خلال رحلتنا على متن السفينة في اتّجاه السويد. معي كل شيء ولكنّي حتى الآن لا أملك شيئاً يميّزني. ما ينقصني هو أن أجري وأفوز بالماراثون، إن شاء الله.

أنتعل في قدميّ حذاء جلدياً بنيّاً ناعماً، مناسباً جدّاً لبلاط الشوارع البرتغالية. إنّه هديّة اشترتها لي أمّي منذ حوالي ثلاث سنوات. أحرّك ذراعيّ القويّين إلى الأمام والخلف. أمشي مسرعاً. أكاد لا أبصر شيئاً. لا أتوقّف، عليّ أن أذهب. رجلاي تطيعانني. سأذهب إلى السويد وانتهى الأمر.

أستورياس، اسم إسباني لسفينة إنجليزية بيضاء ذات خلفية مخططة بالأبيض والأسود، عظيمة ومهيبة. ترسي، الآن، في مياه نهر *التاج* ويشدها إلى أرض لشبونة حبل سميك خشبيّ اللون، لون أعرفه جيّداً في محلّ عملي وحبل ثان مشدود إلى مرساة سميكة تكدّست حولها الطحالب. ترسي هناك محمية من محاولات الرياح لدفعها للبحار الهائجة. حانت ساعة الرحيل اليوم ٢٦ حزيران/ يونيو ١٩١٢. أمرّ بعجوز أشيب، هكذا هو شعر هذا العمر، أبيض أو لا يكون. تلك هي سنّة الحياة. لا بدّ أن يكون سعيداً أو هكذا يتهيّأ لي. يتجوّل مع كلب صغير أقدامه صغيرة ومقوّسة

وشعره أبيض يشبه تماماً شعر صاحبه، ناعم وطويل. لسانه ورديّ. يتبع سيّده في سعادة واضحة. فتارة يسبقه وتارة أخرى يسير وراءه، أو يمشي إلى جانبه، حتى لا أكاد أعرف من يجوّل الثاني. أسرع فقد لاح لي دخان السفينة *أستورياس* يتصاعد سماء في هذا اليوم الصافي الجميل من أحلى أيام لشبونة.

في وسط ساحة كوميرسيو أرى رجلين في منتصف العمر يتحدّثان عن أوضاع البلاد السياسية. مختلفان وزناً وقامة. يلبسان قميصين من القطن مكويين جيّداً. واحد يرى أنّ الأوضاع كانت لتكون أفضل لو استمر حكم الملك، دون *مانويل الثاني*، والآخر يرى أن الحظّ سيبتسم أكثر مع الجمهورية. يحتدّ الجدال دون أهمية تذكر لطرح الأسباب والحجج. كلّ يحاول إقناع الآخر وبسط رأيه في أصوات يستمع إليها نهر *التاج* وهو يداعب مياهه.

إنّها الجمهورية الأولى. نعم الأولى والمرتبة الأولى، أيضاً، هي التي أطمح أنا للفوز بها. أن أكون الأوّل في الماراثون، وأكون البرتغالي الأوّل الحاصل على ميدالية ذهبية رافعاً علم البرتغال مرفرفاً في سماء السويد.

أهرع مسرع الخطوات لأصل مدخل السفينة حيث تنتهي الأرض ويبدأ النهر. أحيّ رئيس البعثة الأولمبية البرتغالية، الكوند *بانيا غارسيا*، الذي ضغط عليّ بكفّ قويّ يعكس احتراماً خالصاً وصداقة صافية، يقول بصوت عال ليسمعه الجميع: «ها هو *لازارو* الكبير، بطلنا الرائع!»، يليه رئيس اللجنة الشرفيّة الدكتور، *جايم موبيرين دوس سانطوس*، ثمّ السكرتير العام الدكتور، جوزيه بونتش. أمدّ يدي أيضاً لممثّل البرتغال في اللجنة الدولية الأولمبية في باريس الدكتور، *أنطونيو* لنكاستر، وبعدها أقف بجانب خمسة سادة آخرين. نعم سادة، فملابسهم فاخرة وأنيقة. هم مثقفون ويتكلّمون بالأجنبي. «*أرمندو كورتزاو*، عدّاء ٤٠٠ متر و٨٠٠ متر»، « *أنطونيو بيريرا*، مصارعة رومانية يونانية»، «*فرناندو كورايا*، مبارزة بالسيف». هكذا يقدّمون أنفسهم وكأنّ اختصاصهم الرياضي مسجّل ضمن أسمائهم العائلية.

أنا نجّار ولكنّهم نظروا إليّ دون تمييز فالمثابرة والجهد والتألّق تعوّض ما ينقصني من مستوى دراسي. أريد أن أتعلّم ما لم أتعلّمه في ٢٢ سنة. لقبي ليس طويلاً وليس معقداً يتغيّر حسب نطق الحروف والحركات ولكنّه يفوح إرادة وجهداً وعملاً وثقة. هذا كل ما أحتاجه لإدراك النصر. أحييهم باحترام فيردّون عليّ بنفس التحية، يمسكون قفازاتهم بأياديهم اليسرى ويمدّون لي اليمنى باحترام. ندخل كلّنا إلى *أستورياس*. أدخل الأخير متذكّراً حكمة أبناء الشعب من ذلك، دون أن أدري بأيّ رجل دخلت فأنا لا أؤمن أبداً بهذه الخرافات. أنا ابن الأرض والواقع.

يحيينا القبطان. يبدو صارماً ومتعلّماً وبصعوبة تخرج منه ابتسامة خجولة. مرّة أخرى يربطنا التاريخ بالإنجليز. فجدّي كان يجهّز دنان نبيذ بورتو للإنجليز وأنا الآن في طريقي إلى الألعاب الأولمبية على متن سفينة إنجليزية. حقيبتي بجانبي، البقيّة استعانوا بخدم ليساعدوهم. أنا لا أحتاج إلى ذلك. أقوم بكلّ شيء بنفسي، وإن لزم الأمر، أستطيع حمل حقائبهم جميعاً دون تعب. في داخل الحقيبة أحمل أشياء كثيرة ولكن أهمّها لا يرى: الفخر والإدارة.

أحد البحارة بزيّه الأبيض الذي يظهر من شكله أنّ رجلاً قد كواه فكثرة التجعّدات والاعوجاج تدلّ على ما ألاحظ دون إثارة الانتباه. ينتعل حذاءً أبيضاً جديداً ويضع على رأسه طاقية مائلة. يدلّني على المدخل. ننزل بعض الدّرجات الحديدية التي لا تصلها الشمس وكأنّنا نزلنا من السماء إلى دهاليز الظلام. سوداء كالليل. نجرّ أقدامنا برواق تفوح منه رائحة السّمك المختلطة مع روائح جوارب البحّارة. إنّها روائح البحر، هكذا أطمئن نفسي لأنسى النّور والألوان في الخارج. أبتسم وأضحك كثيراً. كلّهم لطيفون، فنحن في النهاية أوّل البرتغاليين المشاركين في الألعاب الأولمبية في العصر الحديث لأنّ ما كانت تسمى بالألعاب القديمة لم يعد لها ذكر منذ ١٥٠٠ سنة.

نصل أخيراً إلى مقصورة مظلمة ورمادية. جدرانها صدئة بلا نوافذ وسقفها أسود بها فانوس شاحب يلقي نوراً خافتاً من حين لآخر وكأنّه مكان له نظام حياة خاص: هل عارضت شيئاً ما لأقيم في مكان مظلم ومخفيّ كهذا؟ يواصل البحّار الابتسام بهيبة القوّات البحرية ويقول شيئاً بلغة أجنبية لم أفهمه ولكن عرفت معناه. يشير إلى سريري في إحدى الغرف التي تفصل المقصورات بمجموعة من اللحاف قطعاً كانت بيضاء، والآن، وبفعل الزمن، لن تعود كما كانت بل قد امتلكت ذاكرة فيل. أضع بهدوء حقيبتي وأعلّق على مسمار قبّعتي السعفية المزيّنة بشريط رقيق من الحرير الأخضر والأحمر التي أهداني إيّاها رئيس اللجنة الأولمبية ثمّ أخرج إلى السطح مع زملائي. أصل الأخير ولكن ليس مشكلة فبعد المارثون سأكون أنا أوّلهم وهم جميعاً خلفي.

أعلنت صفارات السفينة للبرتغال وللعالم انطلاق رحلتنا نحو السويد. نترك لشبونة خلفنا والبحر على مرمى من أبصارنا، مياه كثيرة لا تنتهي إلا عندما نصل إلى السويد. أعود قليلاً للوراء لأشاهد دير جيرونيموش الذي زرته أمس وصلّيت فيه من أجل أن أوفّق في مهمّتي في الأراضي البعيدة. أنبهر عندما يلوح لي برج بيلاين وكأنيّ أراه لأوّل مرّة. تلك إحدى علامات تاريخنا الخالد...أنا أيضاً أريد أن أصير عظيماً وأسعى إلى أن أتحدّى مصيري.

أرتعش مضطرباً. «لقد نسيت الشّحم»، ماذا سأفعل الآن؟ أفكّر دون أن يأتيني جواب. يجب، لأنسى ذلك، أن أشغل نفسي بشيء آخر. سأتحدّث زميلي المشارك في المصارعة الرومانية اليونانية فبما أننا نسافر معاً ولنفس الهدف فنحن زملاء، سأحدّثه عن تاريخي الرّياضي وكيف فزت في البرتغال بثلاثة ماراثونات بعزيمة لا تقهر وإيمان لا يحدّ.

-٤-
الوصول إلى السويد

وصلنا إلى السويد. مرّت الرحلة بسلام. لا أدري لماذا يسأل الناس المسافر هل وصلت بخير؟ هل الرحلة مرّت بسلام؟ مادام المسافر قد وصل لهدفه فالجواب بديهيّ، لم السؤال إذن؟

عانقنا البحر وخضّنا ودفعنا وجذبنا مرّات كثيرة كأمّ تهدهد ابنها. يضطرب مرّات ويكاد يفصلنا عن المركب ولكنّه، أخيراً، أوصلنا إلى استكهولم. البحّارة يسرعون مضطربين. يصعدون وينزلون الدّرجات، يفتحون الأجنحة ويخرجون الحقائب، يخففون السلاسل ويرمون الحبال ويثبّتون السفينة في المرسى. أتنفّس. يا للغرابة! كلّ الناس يقولون إنّ السويد بلد بارد. الشمس حارقة هنا وحارّة، إنّه يوم يشبه تلك الأيام الحارّة في لشبونة التي أذكر جيّداً شدّتها. آه! ربّما لهذا السبب كلّ السويديين شقر، فهذه الشمس أحرقت شَعورهم وجعلتها شقراء وإلا لكانت مثل شعورنا بنية أو سوداء. حقيقة أشعر أنّ كلّ الطبيعة هنا بكامل خضرتها اليانعة تحيّينا. هنا يعيش قليل من الناس ولهذا تكون الطبيعة سعيدة فتعيش بسلام وتتنفس بحريّة. إنها حيّة وجميلة. سماء فيها سحب قليلة ولكنّها زرقاء صافية. أحيّ، *أرمندو كورتزاو*، فيبتسم لي. أفكّر في أشياء زراعية من وحي اللحظة وهي المسألة التي تجعل بالي شارداً في البرتغال. نستعدّ للنزول. نودّع طاقم سفينة *أستورياس* بابتسامات وتحيّات. ضربات خفيفة على ظهورنا ونحن ننزل خارجين دليل رفقة جميلة خلال الرحلة. نودع الممشى الخشبي اللامع ونخرج.

لون *أستورياس* الأبيض ولون الطبيعة الخضراء يذكّراني بنادي سبورتينغ،

فريقي في البرتغال الذي ساعدني للوصول إلى هنا. أحمل في يد الحقيبة وفي الأخرى صندوقاً خشبياً يمثّل البرتغال. علم بلادي في صندوق صغير ولكنه يحمل الكثير. إنها ٨٠٠ سنة من التاريخ وربما بعد أسابيع قليلة سيضاف إليها فصل جديد عندما أصعد منصّة ملعب استكهولم متوّجاً.

ما إن تطأ أقدامنا اليابسة حتى نمدّ أيدينا لوزير البرتغال، الحازم، *أنطونيو دي كاشترو فيجاو*. يا له من شرف! كم حدّثوني عنه هناك في حيّ *البايرو ألطو*، في لشبونة، أولئك السادة الذين يأتون إلى المحلّ للاطلاع على سير أعمال عرباتهم الخشبية. ثمّ يظهر مسؤولان من اللجنة المنظمة للألعاب الأولمبية، الكولونيل *أدولف ليندروث*، وآخر اسمه غريب ونطقه صعب. يستقبلوننا بتحيّة «هاي» بصوت قويّ حتى أكاد أقفز مذعورا. يقسّموننا على ثلاث سيارات جميلة هيكلها من الخشب مثل ذلك الذي أنقشه أنا في لشبونة. عجلات مشمعة وسائقون أنيقون يساعدوننا في وضع الحقائب في السيارات. أتركهم يحملون الحقيبة ولكن ليس الصندوق الذي أخفي فيه سرّا: علم بلادي. ليس فقط لأن عبارة "قابل للكسر» ليست كافية لحمايته، بل أيضاً لأنّي أحمل داخله البرتغال، بلدي الذي أضعه تحت الذراع وفي القلب. نركب السيارات وبسرعة تظهر بعض المباني: «سندهمنستغان». «*نرفاغن*». «*ليناغتان*». لو كنت أجري لسبقت هذه السيارة. أضحك في سرّي ثم أقول ذلك، *لأنطونيو* سترومب، الذي يضحك بدوره ثم يقلها *لجواكين فيتال* فنضحك جميعاً حتى أصابت العدوى السائق اللطيف فيضحك هو أيضاً. بعد دقائق تتوقف السيارات الثلاثة بجانب مبنى. إنّها السويد.

«٥٤» يقدّم المبنى نفسه، فهو اسمه ورقم عنوانه. عليه علم مربّع يرفرف مع نسمات الريح المتحركة في هذا الشارع متوسط الطول. «مدرسة هيدفيغ *إلينورا*» يقرأ بصوت عال وزير البرتغال. سننام في مدرسة وتحت سقف من المعرفة سنحلم بأيّام المجد.

-٥-

اليوم الأول في المدرسة

«إنّه مبنى من درجة عالية» يعبّر الكوند *بانيا غارسيا* عن إعجابه بمقر إقامتنا. هو رجل نبيل ومتعوّد على فضائل الحياة تلك. نقفز من السيارات ونسحب حقائبنا وبين شكراً و «طاكس» تجمّعنا أمام باب المدرسة. إنّها السّاعة الخامسة والنّصف عصرا، *أرمندو كورتزاو* يبدأ في الثرثرة ما إن أخرج من جيب سترته ساعة قديمة من تلك السّاعات اللامبالية بالزمن لتخبرك بتوقيت الساعة دون الاهتمام بالدقائق، وهي إن طاب لها، تقوم بمرّتين متتاليتين «تيك» وبعد ذلك «تاك». ساعة جميلة، ومذهبة، مدوّرة، تحمل حرفي AC، منقوشة بحسّ فنيّ رائع. أحبّ السّاعات. إنّها صديقة لنا فهي لا تتركنا نفقد الزّمن. يسأل *أنطونيو* سترومب أحد السويديين التابعين للجنة التنظيم، رجل طويل ووسيم، إن كنّا سنقيم هنا كلّ أيامنا في استوكهولم، فيجيبه بنعم.

ننتظر لنتسلّم المفتاح. إنّنا في أواخر شهر حزيران/ يونيو وأطفال المدارس بدأوا يتمتّعون بعطلتهم فالربيع يأتي خجولاً وباكراً ويرحل سريعاً، متسلّلاً دون سابق إنذار وأحياناً دون الشعور به. السّادة أصدقائي، نعم ويحقّ لي نعتهم بذلك لأننا صرنا زملاء في السّفينة، كانوا يتحدّثون بحماس مع وزير البرتغال الذي كان يروي لنا تاريخ نشأة العلاقات بين البرتغال والسويد. «كان ذلك منذ بداية عام ١٦٤١». قال قافزاً بأسلوب رسمي ومتأنّي بهيأة سفير ليلفت كلّ الانتباه حوله، ويواصل بمعرفة وتمكّن فكري يليق بمن يمثّل بلدنا مثله. «كانت أسابيع شحيحة عشناها بعد استعادة استقلالنا

عن جارتنا، واستفادة من عداء الشعوب الاسكندنافية لإسبانيا، بسبب حرب الثلاثين سنة، أرسل الملك، دون جواو الرابع، سفارة إلى السّويد والدنمارك لكسب أصدقاء وحلفاء لنا هناك. فهنا، في السويد قد باركوا الثورة البرتغالية ورأوا في مستعمراتنا أراض خصبة تنفع لتجارة رعاياهم. فقد ترأّس السفير، فرنسيشكو دي *سوزا* كوتينيو، البعثة ورافقه أمين عام العلاقات ببورتو، *أنطونيو* مونيش دي *كرفاليو*. كانوا قد توقفوا، ولكن دون نجاح يذكر، في كوبنهاغ إذ كان للملك، كريستيانو الرابع، مشاريع تجارية مع فيليب الرابع ملك إسبانيا ولم يرغب في الإساءة إليه. واصل مبعوثونا مهمتهم إلى السويد حيث وصلوا في منتصف مايو من تلك السنة. وفي ١٠ يونيو منحتهم ملكة السويد، *كريستينا*، شرف استقبال يذكر التاريخ أنّه كان عظيماً ومهيباً وخلاله سلّم لها، *سوزا كوتينيو*، هديّة من ملك البرتغال».

كانت الهدية «مزهريّتان صينيّتان تعودان لسلالة مينغ وانلي». نسمع الهتاف يملأ الشارع من الطرف إلى الطرف الآخر، صوت يصل إلى نهاية الشارع ويعود إلى الخلف باندفاع لا يستطيع الزمان أو المكان، مهما ملكا من قوّة، التخفيف منه. صوت امرأة. وقع كعب عال. من كان في الأمام يستطيع أن يلقي النظر أمّا الآخرون، مثلي، فقد أداروا رؤوسهم دون إيجاد الإمكانية لتحريك أجسادهم. «قطع فنيّة فخمة حديثة الوصول إلى متحف الآثار الشرقية لتثير الإعجاب الكبير» هكذا يقول مقترباً من آذاننا التي لم تعد تسمع، فالحواس كلّها متجمّعة في البصر. كان تقديمنا بلغة برتغالية واضحة التلعثم ولكن لا أحد أبدى اعتباراً لذلك.

«أهلاً وسهلاً بكم، أنا *حنّا* أستاذة تاريخ بهذه المدرسة، وسأرافقكم طيلة هذه الأيام في استكهولم». تحيّ وزير البرتغال والممثّلين السويديين وأنا وزملائي الآخرين، ودون أن أعرف ماذا يجب عليّ أن أفعل، أبقى الأخير. تقترب منّي، أمدّ لها يدي اليمنى مسحوراً، يدي التي عرقت قليلاً من حرّ السماء ومن تردّدها أمام تلك المرأة. طويلة، تزيد على متر وثمانين

سنتيمتر. شعرها أشقر يطير مموّجا كلّما هبّ النسيم، رشيقة وأنيقة. بابتسامة خارقة تستقبلنا في المدرسة. تدخل بسرعة يدها في المحفظة الوردية الواسعة وتخرج حفنة من المفاتيح، تأخذ الأطول. واحد من تلك المفاتيح التي لا تتقادم أبدا ولكنّها تتجدّد مع الزمن وسريعة الفتح. نمشي كلّنا خلفها دون أن ننبس بكلمة، *أرمندو كورتزاو* تبادل ابتسامة تواطؤ مع *أنطونيو* سترومب الذي يربّت على كتفي «لنذهب إلى هناك *لازارو* ولا تنسى أن تطرق الباب عند الدخول». ندخل في الردهة الطويلة، سقف عال يضيع فيه البصر، نور يأتي من الجانب الآخر. «ربما بهو» هكذا أعتقد. والأستاذة *حنّا* تشرع في تفسير تاريخ تلك المدرسة المهيبة وذلك المعلم الهادئ المفتوح للمعرفة.

«كان ذلك سنة ١٦٧٠ عندما فتحت مدرسة، هديفيك *إلينورا*، أبوابها هناك» وأشارت بإصبعها إلى يميننا، على بعد ثلاثة شوارع إلى الأمام، هناك في منعطف *سيبيلغتان*. «هل تعرفون» قاطعت الحكاية «عندي عشق دائم للبرتغال، يا له من بلد رائع لديكم، ويا له من تاريخ يثير الرعشة لمجرّد التفكير فيه». تواصل الحديث حول المدرسة التي «كانت مخصّصة للفتيان فقط، مبنيّة من الخشب العادي، الذي تمّ قطعه من غاباتنا في الشّمال وحمله إلى هنا رجال كثيرون. كان سقفها مائلاً كي لا يتكدَس الثلج فوقها ويصيب الأطفال». «ستكون كارثة لو حدث ذلك» يعلّق، *أنطونيو* سترومب، الذي كان منتبها دائماً. «بعد ذلك» تواصل الأستاذة *حنّا* «المدرسة انتقلت إلى سكيبرغتان، هناك في آخر الشارع وصارت مختلطة، أولاد وبنات. وفي سنة ١٨٦٩ انتقلت بصفة نهائية إلى هذا الشارع حيث تقع الآن، في الرقم ٣٧ وقد انتظرت بصبر الانتهاء من مقرّها الجديد، هذا نفسه، حيث نحن الآن منذ ١٨٨٤». تدور على يمينها وتشير بسبابتها في اتّجاه صورة عتّقها الزمن وحافظ عليها. «افتتاح المدرسة» وتواصل فخورة رواية قصّة تلك الصورة الجميلة بكلمات تتدفّق سائلة بين شفاه

حمراء ممتلئة. «كان يوماً رائعاً حضره ضيوف كبار. وخمّنوا من، يا ترى، هذا السيد أبيض الشعر والشارب، جميل اللحية، الأنيق، الواضع قرنفلة طبيعية في ياقة معطفه اليسرى وله تقدير كبير في المجتمع السويدي؟». «إنّه ديبلوماسيّنا العزيز وممثّل البرتغال في السويد من ١٨٥٦ الى ١٨٩٤، *الفيسكوند صوطو مايور*». يقفز عالياً فرحاً الوزير، *أنطونيو فايجاو*، ولا بد أنّ استكهولم كلها قد سمعته.

«أجل، بالضبط»، تردّ الأستاذة *حنّا*، السويدية الفخورة بمعرفتها العميقة بالبرتغال. «مات دون أن يرحل لأنّه خلّف لنا الكثير وجعل من البرتغال والسّويد جارين. وحتى هذا اليوم عندنا طبق يسمى، لوسيو بيركا، على طريقة *صوطو مايور*، تخليداً لذكراه، نعم. لأنّ البطن يغذّي الروح أيضا». ومباشرة يردّ من جديد الوزير، *أنطونيو فايجاو*، «أتذكّر وأذكّركم أنّ زميلي السابق الكريم ذكر لوزير الشؤون الخارجية في لشبونة بمناسبة الذكرى ٢٥ لتقديم أوراق اعتماده لجلالة الملك، أوسكار الثاني، ملك السويد.» *أكتب هذه الرسالة لأنّي أعتقد أنّه من الواجب إعلام جلالتكم بالشرف الذي حظينا به، والطريقة التي عوملنا بها، فليس بدافع أي شعور ذاتيّ بالغرور، إذ أني أعرف أن كل هذ الاعتبار ليس بسبب شخصي المتواضع بل تقديراً واحتراماً للمنصب الذي كنت أشغله وأعود إليه الآن من جديد*». أفواهنا تظلّ مفتوحة لبعض الثواني إعجاباً بعمل ديبلوماسيينا ومواقفهم المثالية، فهم البرتغال نفسه في الخارج.

«هيّا نذهب فالعشاء تقريبا جاهز» تعلمنا الأستاذة *حنّا* عندما كان *أرمندو كورتزاو* يخرج مرّة أخرى ساعة الجيب وبالرغم من أنّها الساعة السادسة مساء فهو لم يستطع إخفاء اندهاشه بابتسامة امتنان لدعوة المضيفة الرشيقة الهيفاء. تشير علينا بقاعة هناك بعد البهو الكبير من جهة بابه الأمامي ذو اللون الغريب، لكنه لم يفقد شكله كباب على الأقل.

«للتذكير، غداً صباحاً علينا أن نقوم بإجراءات التسجيل للألعاب الأولمبية ولكن عندنا وقت فراغ مساء فما رأيكم لو قمنا بجولة في المدينة؟».

«نعم، جيّد جدّاً، هذه فكرة رائعة». هكذا التقينا في انسجام تامّ لجواب عفويّ. كانت هناك طاولة في ركن قاعة ذات سقف عال. مصباح جميل يضيء لنا المكان ويراقب بنوره الصحون الفارغة والقصعتين الطويلتين من المعدن. واحدة فيها بطاطا مطبوخة وفي الثانية قطع لحم وبينهما مرق بعجين لزج. نأكل بتلك الشهية التي تجبرنا على تناول طعام بسيط وعديم الطعم كنا قد تعودناه من أيّام رحلتنا في السفينة. تمرّ الساعات، طيّبة ولطيفة، يحدونا فرح وضحك وابتسامات. حكايات بألف شكل ولون تملأ القاعة. إنّها قاعة كبيرة وضخمة في حجم طموحاتي. أنهض طالباً الإذن من الجميع، أنظر من النافذة فأرى أنّ النهار قد انتهى دون أن يبدأ الليل. هذه هي السويد.

-٦-

من الحدائق في الخارج يدخل النهار

أستيقظ فأرى أنّ النهار قد سبقني. في الغرفة يواصل *أنطونيو بيريرا* وجواكين *فيتال* سباتهما، وحده النفس يدخل ويخرج من رئتيهما معطياً إشارة حياة على السرير الذي ناما عليه ليلتهما حالمين بالميداليات أو بالعائلة التي تركوها هناك بعيداً في لشبونة.... صوفيا، أشتاق إليك. أجري نحو حقيبتي ومن أحد أركانها أخرج حافظة نقود صغيرة، ليس فيها الكثير من القطع النقدية. تلمع قطعة بينها في روحي، إنه القدّيس *ساو كريستفاو*. *صوفيا* هنا قريبة منّي. أمشي حتّى الشباك، لا ستائر فيه وهذا ما جعل نور السماء يراقبنا طيلة الليل. أجلس على الحافة وأنظر إلى فناء مدرسة دون تلاميذ ولا معلّمين ولكنّها مازالت تعيش بروح المعرفة والعلم. قد مرّ من هنا كثير من الناس لم يكونوا ذكراً من قبل وصاروا شخصيات مهمّة. أنا أيضاً أريد أن أصير كذلك. يتملّكني جدّاً هذا التفكير. أضغط بقوة بيدي على القدّيس الذي أعطتني إيّاه *صوفيا* وبأخرى أصوّب الشارب يساراً، أولاً، ويميناً، ثانياً وأخيراً بلمسة عرضية حتّى يبقى مبسوطاً مبرزاً شخصيتي البسيطة والطموحة والقنوعة.

أمرّر ماء بارداً على وجهي وأخرج دون إحداث أيّ ضجيج. أفتح الباب بهدوء. أخرج. ولكيلا أزعج أحداً أدير مقبض الباب الخشبي العالي والعتيق وأدفعه بهدوء. أغلق الباب وأنطلق. «هاي سيد *لازارو*». أرتعب ولكن أبتسم سريعاً لأستسيغ المفاجأة. «جميلة». يأتي إلى ذهني مباشرة هذا الوصف. أنساه بسرعة ولا أرى سوى الأستاذة *حنّا*. إنّها تعرف اسمي. هي المسؤولة عنّا والتي تسعى باستمرار لإشعارنا كأنّنا في بيتنا بالرغم من

بعدنا عن بلدنا. «صباح الخير، أستاذة *حنّا*» أردّ عليها بذهول معتدل. تأخذني إلى الغرفة التي تعشّينا فيها الليلة الماضية. كوند *بانيا غارسيا* وأعضاء آخرون من بعثتنا كانوا هناك. صرير باب غرفتي أعلن أن زميليّ الذين ينامان هناك قد استيقظا. وبعد مرور دقيقتين، الساعة الثامنة والربع كنّا جميعاً نتناول الفطور. أتركهم للحظات وأذهب إلى البهو. هذا الصباح المغطّى بسحابة تحجب الشمس، سحابة من تلك التي تريد أن تبقى ليحبّها الناس. أنظر للسحابة التي ترميني بقطرة وتزيدني مثلها مرّات. إنّها دموع صوفيا، هكذا أفكر حزيناً ومشتاقاً لزوجتي البعيدة هناك في البرتغال. أرى ورقة تنزل ببطء من فوق وتقع في الفناء سابحة في الهواء دون وجهة. تسقط يساراً فتظهر كأنّها سقطت يميناً ولكنّها تأتي هكذا، ورقة شجرة كستنيّة. هل تكون *صوفيا* تبكي هناك بعيداً من أجلي يا ترى وبعثت لي هذه الرسالة لتذكّرني بأنها لن تنساني أبداً؟ أنظر إلى الأرض وأمسك بالورقة، مبلّلة، ربمّا من البرد. أمرّر عليها يدي من فوق. مستديرة وخشنة، هي ورقة شجرة لا تريد أن تصير خشباً، أحضنها وأحبّها هكذا ناشفة جميلة وأكاد أرى فيها صورة *صوفيا* حامل، وحيدة، وحزينة، وبعيدة. أغمض عينيّ فتنزل دمعتان على وجهي المنحني الذي تركهما تغرقان في الورقة وقد صارت مبللة من جديد، ربمّا تلك العفويّة كانت طريقتي في الردّ على رسالة صوفيا.

أشتاق إليها. وأعرف أنّه بحصولي على ميداليّة أستطيع أن أعوّض هذا الاشتياق. «أفوز أو أموت». أصرخ في الورقة التي تسمعني بانتباه وتحتفظ بدمعتيّ لتجفّفهما وتبخّرهما وتعيدهما إلى السّماء فتصيرا سحابة تهبّ عليها الرياح في اتجاه لشبونة وتأخذها إلى *صوفيا* التي تنتظرني. «هيا *لازارو*، هل لديك جواز سفرك القديم ووثيقة اللجنة الأولمبية؟» يسألني الدكتور، جوزيه بونتش. «عندي كل شيء، دكتور». أقول له مفكّراً في ذات الوقت أنّه ليس عندي أيّ شيء. ولكن سيكون لي كل شيء قريبا، أعرف

ذلك. نتبع الاستاذة *حنّا* التي تأخذنا إلى السيّارة التي مازالت تنام هنا في الشارع منذ البارحة وتنتظرنا باطمئنان. «بون *ديا*» (صباح الخير) قال الكولونيل *ليندروث* مازحاً بالبرتغالية، وبشكل مخيف، وهي لكنز لغوي عنده لا بد أنّه سهر البارحة ليتعلمها. «هاي» يردّ، بنفس النبرة، *أنطونيو* سترومب. نذهب إلى الملعب حيث وصلنا الساعة العاشرة صباحاً، تماماً العاشرة كما تشير إلى ذلك ساعة البرج العظيم.

يتركوننا أمام باب بجانب هذا البرج الجميل المصمّم بالمسطرة والكوس، المبنيّ بحجارة مقطوعة في شكل مربّعات بلون الآجر وموضوعة واحدة فوق الأخرى طولاً وعرضاً، كلّ في مكانها المناسب ومن تناسقها كان هذا الملعب، إنّه تحفة هندسيّة عظيمة في شكل دائري. حولنا يتجمّع الكثير من الناس من بلدان مختلفة ولغات وطموحات متعدّدة، جاؤوا إلى هنا ليتسابقوا ويأملون المراتب الأولى. وليكونوا الأسرع على الدراجة، والأقوى في المصارعة، والأجرأ في اللعبة التي يريدون ومن أجلها جاؤوا ليتنافسوا. يندفع للقائنا مدير الملعب والمسؤول عن إجراءات التسجيل، اسمه بيتر أما لقبه وقد لفظه بأسلوب رخو وبحركات وصوت خافت، فإنّي لم أستطيع تذكّره، لذا أصبح يسمّى عندي فقط السيد بيتر. حيّانا بفرح سويدي نشعر به في الجسم ولا يقدره به إلا من عاش الحالة بنفسه.

أرانا مقعداً كتب عليه «البرتغال». أرى على اليسار «النرويج» وعلى اليمين «روسيا»، إنّها وضعيّة مثيرة تجبرها لعبة الحروف ولكن الجغرافيا تريد غير ذلك. أعتقد أن الفرق الآتية من «الأطلسي» و «إسبانيا» كان يجب أن تكون إلى جانبنا، أعلّق ضاحكاً مع جواكين فيتال. «*لازارو*، أنت دائماً ظريف، يا فرنسيشكو». أضحك بابتسامة صباحيّة مجتهداً لأخفي بقايا نوم مازالت تحاصر جفوني.

لم أدخل المدرسة في حياتي ولذلك ساعدني، كوند *بانيا غارسيا*، على تعمير الورقة البيضاء، إذ مسك يدي ووضع فيها قلمه ذو الرأس

المذهب، بنيّ، وجميل، مصنوع من المعدن الذي أتمنى أن أفوز به في المارثون. أقوم بما يطلبونه منّي بسعادة. أنا لازارو وجئت إلى هنا لأجري.

كنا نسجّل أنفسنا واحداً تلو الآخر وبعدها دعينا لزيارة الملعب للمرّة الأولى. أتخيّل نفسي أجري بثقة وأنعرج في المنعطف الأول بسرعة تجعلني أعود إلى نفس المنعطف في أقلّ من ثلاث ساعات. سرعة ستجعلني لا أنسى «لازارو البرتغال». تلك الساعات التي ستغيّرني إلى الأبد، سأقطع المسافة بصدر فخور وبذراعين مدفوعين للهواء ولفرحة الفوز، وسأكون الأفضل بين الجميع والمميز عنهم. السيّد بيتر يشرح ويقول إنّ ٢٥٤٧ رياضياً من ٢٨ دولة جاؤوا للمشاركة في الألعاب الأولمبية. «فقط ٥٧ امرأة». قالت الأستاذة، *حنّا*، بابتسامة ساخطة، ولكن روعة جمالها تطغى على أيّ احتمال لإظهارها غاضبة. «كان ذلك في ٢٨ أيار/ مايو ١٩٠٩ وبسبب مشاكل تنظيمية، انظروا من جهة من!! من الألمان، ولذا اختيرت السويد لاستضافة الألعاب الأولمبية لسنة ١٩١٢. إنّ الوحدة مع النرويج توقّفت في ١٩٠٥ والرياضة اليوم هي وسيلة لتأكيد الذات والاستقلالية وتحقيق مكانة خاصة للطبقات الوسطى والراقية في استكهولم لاستعادة ما كانوا قد خسروه».

«بعد ذلك كان هناك نقاشاً كبيراً بخصوص الملعب وصيانة المركز الرياضي، *أوسترمالم*، الذي كان وقتها جديداً نسبيّاً وبلغت تكلفته ٢٣٥٠٠٠ كورونة، وقد تمّ استعمال قاعة الرياضة التي تعود لشركة لها روابط قريبة من المنظمة المركزية لدعم الرياضة والمسؤولة عن الألعاب، على أن يتمّ بناء ملعب جديد هناك من الخشب بكلفة ٣٨٥٠٠ كورونة. لم يشغل شيئاً من كل ذلك السلطات حتّى أنّ المهندس المعماري، *طورين غروت*، قدّم مشروعاً لملعب من الحجر، يبنى من آجر صغير مربع ودائري الشكل وبه برج الساعة. وهذا هو الذي نحن فيه اليوم، إنّه مشروع خياليّ وفيه جهد جبّار وكلفته وصلت إلى ١١٨٧٨٨٠ كورونة». أشعر بقشعريرة، إنّه ملعب مثير، إنه حلم حقيقي، حلم سويدي، أريد أن أبني حلمي هنا.

«تمّ تصديق عمل ٤٤٥ صحفيا، منهم ٢٢٩ جاؤوا من الخارج، خاصة، من القارة الأوروبية» هكذا قال لنا السيد بيتر دون إخفاء الفخر الخارج مع الكلمات الإنجليزية المنتقاة والتي كان، كوند *بانيا غارسيا*، يساعدني على فهمها بصوت منخفض وشفتين ملتصقتين بأذني. طيّب، هكذا أنا سأجري في استكهولم ومآثري ستجوب العالم.

«يا سادتي، هل أنتم جاهزون؟» يسأل بحزم الكولونيل، *أدولف لندروث*، مبرزا هيبته العسكرية السويديّة. نحرّك رؤوسنا ونجيب بنعم، بذلك الردّ الذي يريد الكولونيل أن يسمعه. وعند ركوبنا السيّارة يعود خيالي إلى الوراء وروحي تودّ لو تبقى هناك استعداداً لانطلاق المارثون. ننطلق ببطء بين جمع غفير من الناس في ملابس رسمية أنيقة والجهات المنظمة تعتني بانتباه بالوفود الحاضرة. البلجيكيون مرتبكون فقد "وصلوا متأخرين» علّق الكولونيل *ليندروث*، ناس آخرون مروا من هناك فبقوا ينظرون إلينا بفضول وفي بعض الأحيان مستغربين متعجّبين، فهذه المدينة كما ظهر لي، بسيطة وهادئة تجلس فيها على مقعد وتتحدث مع الزمن. إنها مدينة حديثة ولكنّها مزهوة بنفسها ومغرورة.

تسود الخضرة المكان فتحتضن واجهات المباني الدقيقة وتمتدّ كسجّاد تحت أقدام الرجال، والنساء، والأطفال. الأطفال الذين يركضون دون توجّس من الفوز بميداليات. الأستاذة *حنّا* تركب السيارة الأمامية وأنا في الوسطى ويتبعنا في السيارة اللاحقة *فيتال* وسترومب رفقة أحد السويديين. نعبر العديد من الأزقة والشوارع المقسّمة إلى مربّعات. لا بدّ أن تكون السّياقة سهلة هنا، هكذا أظنّ لأنّه ليس عندي رخصة سياقة. الجوّ حارّ اليوم ولكن السّماء رماديّة والمدينة تسير بهدوء. نتوقّف بجانب الأشجار الخضراء الممتدّة التي لا تعرف العطش فهي في خضرة طبيعية ودائما حيّة وتتنفّس حريّة.

«مقبرة شمال استوكهولم» يقرأ لنا الكولونيل، *ليندروث*، مترجماً يافطة صغيرة خجولة مسنودة إلى دائرة سوداء طولها متر ممّا يسمح من كل

الجهات برؤية الحديقة الخضراء. منزل طبيعي بأعمدة سوداء تفتح من الجانب الأيمن باباً ضخماً ليدخل منه المترجلّون وفي الوسط هي أكثر كرما حيث يوجد مكانا للسيارات التي تأتي إلى هنا أحيانا. ينتهي الباب الضخم بمزهرية على يساره وأخرى على يمينه. مزهريتان طويلتان يحييانا بورود وزهور حمراء. لا أدري بالضبط نوعها لأنّي لم أستطع معرفة من أية فصيلة هي، لا بد أن تكون ورود سويديّة، هكذا أحسم المسألة لأترك ذهني خالياً ومركزاً فيما يعنيني، المارثون. في تقاطع مع صوت الكولونيل الخشن تأتي أصوات رقيقة وحسّاسة للأستاذة *حنّا*، تقترب بكعبها العالي في الوقت الذي يصبّر فيه الريح على سحب شعرها الأشقر واقتلاعه، إن استطاع، لا لشيء إلا لأنّ أحد عناصر الطبيعة الخبيثة لا تريدها أن تظل جميلة. «اتبعوني من فضلكم» تأمرنا ونحن نطيعها دون تردّد ومن دون معرفة إلى أين ستأخذنا. لكن نذهب. ندخل حديقة الأموات. هناك من جاءها بعمر الورود ومن بعد أن عاش عمراً طويلاً بين أهله وأصحابه وأحبابه. عاشوا وفرحوا، وغنوا، ورقصوا، وبكوا، وتعكزوا. عاشوا مغامرات كثيرة ونعموا بحياة عامرة وها هم الآن، هنا، تحت اللحود.

هناك صليب صغير مغروس في قليل من التراب وبالقرب منه شاهدة قبر طويلة عمودية من الحجر الأسود عليها كلمات صعبة القراءة، وأخرى خالية من الكلمات ولكن مازالت تحتفظ ببعض الورود. ناس كثيرون يزورون أحبابهم وأقربائهم ويتمنّون لو باستطاعتهم إرجاعهم إلى الحياة، إلى منازلهم وإلى المطاعم، والمدارس، والشوارع ولا يتركونهم أبداً يعودون إلى هذا الغياب. ولكنهم رحلوا، تلك هي سنّة الحياة يقول، كوند *بانيا غارسيا*، بصوت متأثر بهيبة المكان واحتراماً للذين هناك تحت التراب، أولئك الذين يتساوى عندهم الأمس واليوم والغد. لا شيء يتغيّر، لا شيء يتحرّك. إنّها المقبرة. ولكن في هذه الحديقة حياة أيضاً. فهي لا تنسى من كان حيّاً فيها ومن كان يمثل كل شيء في حياة شخص آخر. إنّها حديقة شاهدة على

نبض الحياة. السّماء الداكنة تخفي بسحبها المقبرة وتغرقها في صمت. كلّ شيء مرتّب ومنظّم بعناية، فالمسارب ممدودة وفق الانحدارات اللازمة والكافية لتفرّق مياه المطر يميناً ويساراً في المزاريب التي يجهد عمّال البلدية في إزاحة أوراق الشجر عنها. يلبسون الأخضر في تماه مع الطبيعة. رجالاً ونساء يخدمون الموتى هنا وربمّا ينتظرون بعد أن تأتي ساعتهم أن يجدوا من يخدمهم هم أيضاً من الأحياء.

تقريبا، لا أحد منّا يتحدّث مع أحد بالرغم من وجود الكثير من العبارات والكلمات التي تخصّ هذا الموقف. لا مشكلة الآن فسيأجّل الكلام إلى وقت لاحق. إنّ الصمت هنا من ذهب، من ذلك المعدن نفسه الذي أريد أنا الفوز به. هناك في الأمام، تقاطع طرقات الموت ويميناً تقف شاهدة قبر زرقاء ربما اختارت هذا اللون لتكشف الطريق إلى السماء. إنّها «المقبرة الكاثوليكية». يحاول، *أنطونيو* سترومب، أن يقرأ ما هو مكتوب بالسويدية. تنفجر ابتسامة تعمّ الجميع، ولولا وجودنا في مكان لا يمكن الضحك فيه، لأخذتنا القهقهات. يصاف *حنّا* مادّاً يده اليمنى في حين يمسك بالأخرى قفازاً أصفر كلون حديقة الموت. إنّه مدير المقبرة. قال بعض الكلمات وكأنّها همساً، ومن الواضح فيها تعبير عن فرحته بوجودنا هناك وهذا لا يحتاج لتفكير لأنه سبب وجودنا في ذلك المكان. لم يلغ الإحساس الغريب بذلك المكان رقّة الأستاذة *حنّا* التي دعتنا للتوقف يمينا بعد المشي ١٠ أمتار في هذا الطريق الذي يمثل الشارع الرئيس المؤدي لوسط المدينة. «هذا هو ضريح *الفيسكوند صوطو مايور*». فهمنا كلّنا أنا، وفتال، وستروموب، و*كورتزاو* والبقية، فقد تذكّرنا ما قالوه لنا أمس.

لمدّة دقيقتين نترك شاهدة القبر تتكلّم، وتتحدّث مع شجرة نمت حولها، معوجّة قليلاً، ولكن متسلّطة تتجاور مع الأعشاب الضارّة التي تنمو ممسوخة أمام القبر، وكأنّها تسأل ذلك الطحلب الذي نما وشكّل مغارة على صدرها لماذا لا يترك شاهدة قبر الفيسكوند بسلام. تسكت الطبيعة

بعد ذلك بقليل لتترك لمدير تلك المقبرة الصغيرة، الموجودة داخل أخرى أكبر منها، الفرصة للكلام فيقول لنا أنّ ذلك المكان ولد من أجل البرتغال، ليحضن الأموات، لأنّه خلال سنوات مضت في سنة ١٨٤٠ كانت هناك سفينة سويدية قد غرقت بعيداً، في البرتغال، وتمّ دفن ضحاياها هناك بإذن من السلطات البرتغالية. كانوا مائتين من مواطنيهم، وفي المقابل، وكعرفان بالجميل، تمّ إبرام معاهدة صداقة متبادلة أعطت السويد بموجبها ترخيصاً ببناء هذه المقبرة الكاثوليكية سنة ١٨٤٩، في الرابع والعشرين من شهر يوليو. بنيت هناك في قلب المقبرة البروتستنتية التي يرقد فيها أول مايسترو لكورال الكنيسة. ولسخرية القدر فقد بدأ بالموسيقى ذلك المكان الكئيب. نبقى مرتبكين حتّى أنّ شاربي تحرّك مضطرباً ليس من البرد، لأنّه لم يكن موجودا، ولكن لأننا لم نكن نعرف كيف فرّقت الجغرافيا بلدانا وقرّب الناس بينها.

أبتعد قليلاً دون أن يتفطن أحداً لذلك فأرى قبوراً أخرى، وصلباناً. كثيراً من الصلبان. تواريخ وموتى كلّها معرّفة بالأسماء. على بعد بعض الأمتار أنظر مرة أخرى إلى شاهدة قبر من الجرانيت الوردي، هو ضريح الفيسكوند « *أنطونيو دا كونيا* » في نفس الخط بعد «*صوطو مايور*» وبعد ذلك مباشرة توجد «مقبرة برتغالية» ليكتمل الخط بالتاريخ الذي بدأ فيه كل شيء «١٨١٢». مكتوب بشكل مفصول وبخط أفقي فقط. كلّ حياة الفيسكوند ملخّصة في هذا السّطر، لا شيء أكثر، حتّى سنة ١٨٩٤. إنّنا كثيرون في هذا العالم، فقد أنجزنا الكثير، وإن لم يظهر إلا قليله، في كلّ بقاع العالم. إنّه مجرّد خطّ أفقي مذهّب لا غير. أمشي بعض الأمتار حتى أصل إلى دوّار فيه صليب عال في الوسط. المسيح هناك ينظر إلينا، ينظر إلى الذين غادروا والى الموجودين هنا أمام الكنيسة الرمادية ولكنها تظهر بيضاء بسقفها المائل كثيراً للسبب المعروف.

أسجد دون التفكير في الأرض المبلّلة بقطرات المطر التي نزلت خفيفة

بداية وبعد ذلك تهاطلت. أصلّي وأفكّر في صوفيا، أصلّي من أجلها، ومن أجل بعثتنا ومن أجل بلدي، البرتغال، البعيد هناك، في الجانب الآخر من أوروبا. *صوفيا* بعيدة، إنّها الثالثة ظهراً، أعرف ذلك لأن *آرمندو كورتزاو* أخبرني بالساعة عند دخولنا الكنيسة فحسبت، تقريباً، عدد الدقائق التي قضيناها هنا منذ وصولنا. لابدّ أن تكون *صوفيا* الآن في البيت مشغولة في الغسيل، أو تتحدّث مع دونا أزاورا، التي تسكن بجانبنا، لابدّ أنها تتحدث مع اللحافات البيضاء المزركشة التي أهديت لنا في زواجنا، أو أنها منهمكة في إصلاح أزرار قميصي. لابد أنها مشغولة في شيء ما.

أنا حزين، أشتاق إليها وأعرف ذلك، إنّها قليلة الأيام التي تفصلني عن رؤيتها، وبعدها، سنجري معاً في لشبونة، من ساحة مركيش *دي بومبال* حتى نهر التاج، سنذهب لنجري جميعاً، أنا وهي وابننا الذي في بطنها والميدالية الذهبية على صدري. نذهب جميعاً إلى دير جيرونيموش نشكر هذه النعمة. أنهض وأقفل راجعاً إلى المجموعة. أقف لأستمع إلى مدير مكان الموت هذا الذي يقصّ حكايات عن الحياة.

هناك في الخلف أشاهد موكباً يمرّ، كلّهم يلبسون الأسود، أحذية سوداء، سراويل وتنّورات سوداء، معاطف سوداء قبعات سوداء، كل شيء أسود. إنّها جنازة. وفي تناقض صارخ مع هذا الصمت كلّهم شقر، طوال أو قصار، نحاف أو سمان، نساء أو رجال أو أطفال، كلّهم بعيون زرقاء كألوان علم السويد. الحزن يمشي ببطء لأن من رحل لا شيء يعنيه.

لا أستطيع أن أشعر باللامبالاة في هذا المكان، فهو يحرّكني ويهزّني. يقول لي أن *الفيسكوند صوطو مايور* وقد تميّز واشتهر بعمله النبيل فأنا أيضاً *لازارو*، فرنسيشكو النجّار. يجب عليّ أن أصير كل شيء قبل أن أتحوّل إلى لا شيء، وقبل أن أجيء يوماً ما إلى هذا المكان. خرجنا من هناك ومررنا بدوّار صغير وسط آخر أكبر منه يفصله عن التراب الكاثوليكي. نعود يساراً ثم يسار مرة أخرى. نمشي مائة أو ربمّا مائتي متراً، نمشي بين قبور ممن

غابوا الآن «*أنطون*»، «*مارتا*» «*جوهان*»، «*جوزيفينا*» كلّهم قدّموا أنفسهم بأسمائهم في صمت، الصمت هنا حالة دائمة ورمادية، الطريق رطب الآن لأنّ نسمة وحيدة أخذت من ترابه الماء فحملته السّحب.

وصلنا إلى ساحة مستديرة. الأستاذة *حنّا* تحرّك ذراعيها وتشير إلى اليسار. هناك نصب عموديّ من الجرانيت الرمادي يشبه لون السماء، مذهب ومنقوش بحروف كبيرة تدلّ على رجل عظيم. إنه لقب ذلك السويدي الذي اكتشف الديناميت، «نوبل» الذي خلّف باسمه جوائز عديدة يطمح كثير من الرجال والنساء، في مجالات عديدة، إلى الفوز بها.

هناك، في الأسفل، وعند أسفل النصب الحجري، يوجد اسمه كاملاً «*ألفريد نوبل*» وتاريخين؛ تاريخ ١٨٣٣ منقوش فوقه وتاريخ ١٨٩٦ تحته قليلا، وسطر واحد مكتوب. يعني أنّ الحياة ما هي إلا نقطة ولادة وصليب موت «ولد في السويد ومات في إيطاليا بعد أربع سنوات من صعوده إلى أولمب الحكمة، في سنة ١٩٠٠ «. شرحت الأستاذة *حنّا* العارفة دائماً وإلا لما كانت أستاذة. «المؤسسة تحمل اسمه». ذهب المارثون سيكون جائزة نوبل عندي، أفكّر بيني وبين نفسي وأبتسم داخلياً فتخرج البسمة حتى أكاد أشعر بقشعريرة في جلدي.

-٧-
تائهون في المدينة

نخرج من هناك مثلما دخلنا، في صمت، ودون إحداث أيّ ضجيج، دون كلام، دون ابتسام، وأيضاً دون بكاء. ولكن نخرج أيضاً بأفكار مليئة بالحياة تعلّمناها من ذلك المكان. أجل لأنّنا تعلّمنا أنّ أماكن حزينة قد تحفظ أيضاً ذكريات سعيدة للحظات عشناها وتمنّينا كونها لا تموت. يأخذوننا بالحافلة إلى جزيرة أخرى، واحدة من جملة أربع عشرة جزيرة تكوّن استوكهولم «صودرمالم» تخبرنا باسمها الأستاذة *حنّا* وتعلمنا، بعد ذلك، باعتبارها أستاذة أنّه في ذلك الحيّ تسكن الطبقة الكادحة، طبقة البروليتاريا التي تعمل في المصانع السويدية لتنتج تلك الصناعة التي تنمّي وتغذّي بلداً مازال زراعياً.

يمرّ أمامنا زوجان من الشباب، لا أدري إن كان متزوّجين أو لا ولكنهما يمشيان يداً بيد، هي في الأمام تلهث وتفتح الطريق وهو خلفها بخطوة واحدة، يتقاسمان الابتسام والتعرّق. شقراوان وعيونهم زرقاء. يجريان بتركيز كما لو أنّه ليس هناك غد. هذا جيّد، لا يجب إلا أن يكون هكذا، أجر اليوم كما لو أنّ الغد لن يأتي ولهذا عليّ أن أجري وأفوز بالمارثون. لم يبق إلا القليل على انطلاقه. تهزّني الشوارع، إنّها الرّابعة والنصف عصراً، يخرج الناس من العمل ويأتون ليعيشوا النّهار. أتذكّر أنّه أمس حدثنا، *أنطونيو فيجاو*، وزير البرتغال أنّه في الشتاء عليك أن تمشي حاملاً في كل يد مصباحاً يدويّا ولكن، وطلب منّا بألا نضحك، أنّه هنا ليس علينا تحمّل ذلك البرد الرهيب الذي عندنا في *فيانا دي كشتالو* في شمال البرتغال. يا لها من سخرية، بيت دافئ في بلد بارد ومتجمّد وهناك في شمال

البرتغال، البلد الدافئ، يتجمّد الناس من البرد. بينما كان السادة الآخرون يتكلّمون في كل شيء مع السويديين المنظّمين في شرفة تطلّ على أحد أذرعة بحر البلطيق الذي يمسك بهذه الأرض، كنت أجلس على مقعد خشبيّ بأرجل حديدية. لا بدّ أن يكون أبيض في الشتاء وهو الآن سعيد لأنّه يمكنه أن يتنفّس ويشعر بقيمته ودوره. لابد أنّه يعرف قصصاً كثيرة سعيدة وحزينة من أولئك الذين يسردون مغامرات صيد الأيائل أو أولئك الذين لم يفعلوا شيئاً ولكن في أسرّتهم جعلوا من السحب لحافاً ومن النجوم هدفاً بحثاً عن حضن يبعدهم عن الواقع ويتمنى لهم «ليلة سعيدة».

تجيء الأستاذة *حنّا* نحوي للقائي. أشعر بقشعريرة خفيفة في ذراعيّ وتشابك شعري الخشن الأسود، ها قد جاءت، يتملّكني الخوف والرهبة. «السيد *لازارو*، هل أعجبتك مدينتنا وبلدنا؟» تناديني بالسيّد. هل ناداني أحد هكذا؟ ينتابني غرور. أريد أن أجيبها وأكسر هذا الخجل وأظهر لها أنيّ قادر على الحديث جيّداً مع الآخرين، وإن غابت عنّي بعض الكلمات، فسأستعين بحركة ما، أو صوت ما، أو حتّى أستعيض بابتسامة لأفصح عمّ أريد قوله. فإن كانت الابتسامة تعوّض ألف كلمة كما يقولون، فلا يلزمني الابتسام كثيراً لأعبّر عن الكلمتين أو الثلاث التي تنقصني.

«شكرا جزيلاً، الأستاذة *حنّا*». ونبقى هناك، نحن الاثنان، نتحدّث. والآخرون ينظرون إلينا بريبة وكأنهم يريدون الاستماع لما نقول ربّما للمشاركة في ثرثرة لطيفة أو ربّما كانت مجرّد غيرة لأنّها جاءت لتتكلّم معي أنا. إنّها أستاذة وجميلة. «غراشا» أكرّر ذلك مرات كثيرة بصوت عال ومرات بصوت منخفض بطيء ولكن لم تفهمني. نضحك كثيراً والآخرون ينظرون إلينا دون أن يفهموا شيئاً. نضحك دون توقف نحن الاثنان في نفس الوقت ومرة أنا أضحك ومرة تضحك هي ونواصل الضحك. تمرّ دقيقة فأخرى وأخرى. نضحك كثيراً، أنخر بأنفي لتفهم الأستاذة *حنّا* أنّ الخنزير هو الذي يوفر لي ما أريد وما أحتاج. أمرّر يدي على ذراعي أتظاهر أنيّ أدلكه «شحم».

«شحم». تضحك بفم مفتوح قليلاً ولسانها يلتصق بأسنانها البيضاء الوامضة، تومئ لي أولا لتقول بعد ذلك بين قهقهات. «نعم، سيد *لازارو* لقد فهمت». أطلب منها أن تحفظ السرّ. أضم إبهام وسبابة يدي اليمنى لبعضهما وأمررهما، برفق قرب فمها حتى أكاد ألامس شفتيها الحمراوين المطليتين الباسمتين. تنظر في عينيّ لبعض الثواني وتقول: «نعم، سأرى الأمر فلا تقلق». تعدني بحركة ورأسها نصف منحن وشعرها الأشقر اللامع يريد الوقوع على الأرض. علينا أن نغادر وننضمّ للآخرين. السيّد، جواكين فيتال، يسألني «إذن، *لازارو* ماذا عرفت عن السويد؟». أنقذني الكولونيل *ليندروث* الذي طلب منا الذهاب إلى السيارة، لنعود إلى المدرسة.

-٨-
أنت، هناك بعيداً

«التاسعة والنصف ليلا هنا» يبلغنا، *أرمندو كورتزاو*، وهو ملفوف في رداء أصفر طاويا الجزء العلوي منه. له نعلان بلون أزرق داكن، شعره خشن. لابد أنه كان يفكّر في وجود البرد هنا. يضع حزاماً بلون الميدالية التي أريد الفوز بها. «هنا زائد ساعة عن البرتغال». أنا مشتاق، وأشعر بفقدان صوفيا. أغوص في اللّحاف ببيجاما تنام معي منذ سنوات. القطن تهرّأ ولكن القطن يظل قطناً دائماً. ما زلت أتذكّر أنّي اشتريتها بالنقود التي حصلت عليها من راتب شهر عملي الثاني في المصنع، اشتريته من دكان السيّد *أنطونيو* في حيّ *شيادو*، دكان صغير لكن لا ينقصه شيء. كنت أذهب إليه مع أمّي لنشتري أزراراً، إبر خياطة، جوارب، قمصان نوم، مخدّات من كل لون. فيه منسوجات وأسعار وأذواق ومقاسات متوفّرة حسب جيب كل شخص. كانت محفظة نقودنا صغيرة لكن لم تكن أمّي تشتري بالتداين أبداً. لم يسجّل اسمها أبداً في ذلك الكنّش الكستني الذي كان السيد *أنطونيو* يخفيه بعناية في جارور الطاولة. يسحبه بفرح فالتجارة تسير على ما يرام وهذا الرجل الطيب المجتهد كانت أمي تحبّه وتسأله عن عائلته أو تشكو له سوء ما حلّ بنا، والحمد لله، فما كان ينقصنا من نقود كنّا نعوضه بفرحة الحياة.

لا بد تكون *صوفيا* نائمة الآن، إنّها بعيدة في لشبونة ولكن قريبة للقلب هنا، أقول ذلك لأواسي نفسي ولكن لم يجد ذلك نفعاً. أنا أشتاقها وانتهى الأمر. وإن جاءتني حالة البكاء سأبكي واضعاً رأسي تحت المخدّة. أغلق قبضتيّ وأحضن رأسي بذراعيّ لأتظاهر، ولو للحظة، أنّ *صوفيا* هنا معي،

إنّها تحبّني كثيراً وأنا أيضاً أحبها جداً وأفكر فيها وفي ابننا وفي النزهات الكثيرة التي سنقوم بها في لشبونة أو في الخارج. عندما تكون عندي نقود كثيرة أستطيع أن آخذهما معي إلى المارثونات. أنا في الداخل أشارك وهما يتفرجان في الخارج وكلّنا من أجل البرتغال. يضغط عليّ صدري. يصعب عليّ التنفس عندما أفكر فيهما. سأجري من أجلهما. غداً سأطلب من كوند بانيا غرسيا، وإن رأى ذلك صالحاً، أن يستأذن من وزير البرتغال ويبرق للشبونة ليسأل عن أسرنا. أعتقد أنّه لا يرى مانعاً في أن نسأل عمّن نحبّ ويتمنّى لنا الخير. أزيح المخدة وأضعها تحت رأسي وأفكر في الوضع الذي أنا فيه. من أين جئت إلى أين وصلت. أنا نجّار عربات ولكن أنا هنا في قمّة العالم، قريباً جداً من المجد. أنا محظوظ. سأجري والعلم على صدري، ذلك العلم نفسه الذي غسلته جيّدا بيديّ وطويته على أمل شرف حمله معي. أريد أن أخضّبه أيضاً أكثر عندما أقطع اللفة الأولى في المركز الأول. أنا هنا بين سادة ولوردات ونواب لوردات، أشخاص بأسماء طويلة حسب عراقة نسبهم. أنا بين المميزين، بين الأسرع، بين الذين يستعملون أرجلهم للعدو لأنّهم يملكون هذه الهبة، ولكن أيضا، لأنّهم يجتهدون ويتعبون ولأن إرادتهم أقوى من الآخرين ولذلك هم يلمعون عاليا.

استقبلونا جيّداً هنا في السويد واعتنوا بنا وحرصوا على أن نكون سعداء لأنّ الألعاب الأولمبية هذه تجسّد حلما كبيراً لهم. إن شاء الله يتوفّق زملائي الآخرين، حاملي الأزياء الأنيقة، في الفوز أيضا بميداليات كثيرة، ويظهروا للجميع كم هو كبير البرتغال. إن شاء الله تستطيع الأستاذة حنّا أن توفّر لي المرهم الذي أحتاج، هذا ما أحتاجه للفوز، مرهم جيّد لا يجعل السوائل في جسمي تتجفّف بسرعة، ولا يترك طاقتي تضيع في هدر السوائل وتتبخر وإنمّا تجري في عروقي دون توقف لأنّي لا أريد أن أتوقّف. أترك النعاس يغلبني، فقط النعاس، لا شيء غيره ينتصر عليّ. تشتدّ هذه المشاعر بداخلي وتضغط على معدتي وصدري. أستدير في

السرير مرات عديدة، أتشنّج، من البطن إلى ما فوق. يصعب عليّ أن أنام. أطفأ، *أنطونيو سترومب*، نور المصباح الوحيد الذي ينير السقف فقط لا غير. أشعّة تصل بصعوبة إلى أرض الغرفة. لا تُغيّر شيئاً. في الخارج يستمرّ النهار، سماء زرقاء، يا للسخرية، سماء مختفية في النهار تأتي الآن لتقول لنا ليلة سعيدة.

-٩-
شجرتي

أفتح عينيّ ببطء، أفركهما بيديّ اللتين مازالتا نائمتين. أزيح الستائر لأرى الشّمس وقد عادت للشروق مرة أخرى. عالية، تودّ ألا تغادر مكانها، تنظر إلينا دائماً. مباركة. الآخرون مازالوا نائمين، لا أدري كم السّاعة ولكن أرغب في أن أجري وأتدرّب، سأذهب لأشاهد المدينة. لا أخشى التيهان فيها فهي مصمّمة بشكل هندسي واضح، أعرف أين يجب عليّ أن أنعطف وأين أعود إلى الوراء. لست خائفاً. بقدمين من صوف أمشي في الممرّ الذي يوصل إلى الردهة، أتجاوزها وانظر إلى السماء التي تشعر مثلي بالحرية في هذا اليوم. أدخل المبنى. أخرج وأغلق الباب وأتأكّد من أنّ القبضة مغلقة جيّدا. لا أعرف الكتابة لذلك لم أخبر أحداً أنّي ذاهب للجري، ولكن هذا ليس مشكلاً، سأعود بعد ساعتين أو ثلاث.

أنزل في شارع عريض وطويل، في نهاية سلسلة مباني. هناك مياه وبحر وأشجار وأوراق وطيور صغيرة تتمشى دون نظام. لا بدّ أنه باكرا ولكن لا أعرف كم الساعة. سفينة كبيرة من خشب كستني من تلك التي لا تخشى البلل تشق المياه الباردة، فنحن في النهاية نوجد تقريباً في القطب الشمالي. أقوم بحركات إحمائية لرجليّ، أمسك بواحدة بيد وبثبات ألصقها بظهري ثم الأخرى. أتكئ على شجرة موجودة هناك. قشرتها خشنة متآكلة. ليس سهلاً أن تكون شجرة في السويد.

تظهر وكأنّها تريد أن تتكلّم معي وأن تقصّ عليّ كيف هي الحياة هنا، في هذا المكان الذي ولدت فيه ونمت وفيه ستموت، وربّما، لن تتحرك من

هناك إلا لدفنها. بالتأكيد ستحدثني عن الطيور التي تزورها صيفاً، والتي تأتي لتقضي عطلة وتنجب فراخاً لتعود معها طيوراً في السنة القادمة. وتحدثني عن النساء والرجال الذين يمرون من هناك مع أطفالهم، عن زوجات وأزواج، وصاحبات، وأصدقاء ومعارف والحيوانات التي يحبونها. تحدّثني عن المطر الذي يبللها والثلج الذي يحجبها لشهور طويلة عن الشمس ودفئها، عن السحب التي تحميها أحياناً وأحياناً تفرغ فوقها غضبها.

أحبّ هذه الشجرة لأنّها تساعدني في هذه الإحماءات قبل الجري، سأتذكّر أنّ كل شيء بدأ هنا، حيث قمت بتدريبي الأوّل في السويد.

في الجزء السفلي، بجانب جبل صغير يرتفع برج وفوقه تسبح سحابة ليست ببيضاء وإنما رمادية داكنة كبيرة، تبدأ في تغطية السماء، فالجوّ يبدو أنه سيتغيّر. عليّ استغلال هذا الوقت. أقصد الطريق، أهرول بطيئاً ثم أسرع قليلاً وبعدها أبدأ الجري، دائماً بجانب الماء هكذا أعرف أنيّ لن أتيه. أجري. الماء على يساري وعندما أشعر بالتعب قليلاً أعود إلى الوراء والماء على يميني. لا أتوقّف إلا عندما أرى الشجرة وعندما أشعر تماماً بالتعب. بعد قليل يبدأ بعض الناس في الظهور وشيئاً فشيئاً تمتلئ المدينة بالحياة. تدفعني الروح.

-١٠-

ألعاب الفرح

تموز/ يوليو في يومه الثاني. تلقيّنا دعوة غير منتظرة على شرفنا من طرف وزير البرتغال. هكذا قال لنا بصوت متباه بأن نرافقه لحفل التكريم في اليوم التالي، الساعة السابعة والنصف مساء، على متن «*كاترينا*» باخرة الكولونيل، روبرت *طومبسون*، رئيس اللجنة الأولمبية الأمريكية. يريد أن يقدّم هديّة لنظرائه في اللّجنة الأولمبية الدولية وإلى كل فرد من السبع وعشرين دولة ممثّلة هنا في استوكهولم. وشرح سفير البرتغال أن الدعوة توسّعت لتشملنا كلنا بما أننا بعثة صغيرة. فالفخر الذي في داخلي يفوق التوتّر، إنّه ذلك الشعور الخاص بالمناسبات الكبيرة التي تحدث مرة واحدة في العمر ولبعض المحظوظين، في حين من لا نصيب لهم من الحظ، يظلّون محرومين من تلك الفرص في حياتهم. «كل شيء حصل لي»، أفكّر ولكن بعكس الدلالات التي تشير إليها الكلمات عادة. أسرّ لنا الكولونيل *ليندروث* أنّ المنظمة تريد من هذه الألعاب أن تكون بسيطة وواعية ومنها نستشف روح معنى أن تكون رياضياً في ألعاب القوى، تلك الرياضة التي لا تجلب ميزات كثيرة لأمّة أو لأخرى ولكنّها تجعل الجميع على قدم المساواة، وتوفّر نفس الظروف الجيّدة ليستطيع الرياضيون تمثيل بلدانهم على أحسن وجه. ومن دون أيّ غرور أعتقد أنّها ألعاب *لازارو*، وضعت على الصورة التي أريدها، فأنا عندي ظروف أقلّ من الآخرين، ولكن بفضل الجهد والمثابرة استطعت تحقيق ما طلب منّي حتى أقدر، في النهاية، أن أجري من أجل بلدي وأتفوّق عن جدارة على الجميع، فقط الجدارة، هذا ما أريد، لا أكثر ولا أقل.

ليس لي ملابس تليق بذلك الحدث، أقول للدكتور، *جايم موبرين دوس سانتوس*. يمشّط شعره كلورد وأظافره مقلّمة بطريقة بديعة حتّى أنّها تثير غيرة الأرض الأمّ. يرفع رأسه إلى سقف قاعة المدرسة بحثاً عن جواب أعتقد أنه لا يملكه. الأستاذة *حنّا* كانت دائما منتبهة. فهمت دون أن أشرح لها الأمر. تجيء حذوي وتهمس لي ببرتغاليتها ذات النبرة الشمالية بأن لا أقلق وأنّها ستجد لي حلاً.

نترقّب بعد مرور بعض الدقائق زيارة مديرة المدرسة، السيدة هيلين لاجركفيست، تأتي لتقول لنا أنّه علينا اعتبار المدرسة بيتنا ومقرّ إقامتنا الأول والوحيد في استوكهولم، وأنه أيضاً ليس من الواجب علينا شكرها، فهي لا تريد شيئاً من هذا القبيل. تقسم تلك الشقراء صاحبة الستين سنة وملامح الزمن المرسومة على وجهها المدوّر الذي تلمع منه عينان زرقاوان تشعّ منهما سعادة عارمة. «أشكرونا بالميداليات»، هكذا طلبت منّا كما لو أنّه كان ضروريا هذا الطلب، فطبعاً نحن جئنا من أجل هذا ولو كنّا في سياحة لكانت الفرص أفضل. أومأنا بابتسامات معبّرين عن موافقتنا، ابتسامة برتغالية خجولة لأنّنا إلى حدّ الآن لم نفعل شيئا. بقينا نتحدّث وأنا لا أفكّر إلا في ملابس السّهرة. يا للشقاء جئت لأجري في تبّان والآن يريدونني أن أجري في زيّ في قيمة التظاهرة.

تناديني الأستاذة *حنّا* لركن في قاعة تفتح على الشارع. من حين لآخر تمرّ فيه سيارة، أو شخص، أو مجموعة صغيرة من الناس، أو درّاجة يركبها ولد لا يفوق سنّه الثامنة أو التاسعة ولكن يقود بحرفية. «سيد *لازارو*، لا حقاً في المساء سنهتمّ بك، طيب». «أجل، دكتورة *حنّا* شكراً جزيلاً، أعرف أنّه معك لا يمكنني أن أقلق، لكن... ليس عندي النقود الكافية، أملك فقط بعض القطع التي جلبتها معي لطارئ ما..و....». «هذا ليس مشكلاً، سيد *لازارو*، فعمّي، لو تعرف، يعمل خياطاً في نورلمان، في تلك المنطقة التي توجد فيها المقبرة التي زرناها أمس، عمرة يفوق الأربعين

وعنده العديد من البدلات، والسترات وربطات العنق وحتى الأحذية، وبكل المقاسات. هناك من مازالوا ينتظرون بصبر بدلاتهم الأنيقة لذا يمكن أن يعيرك واحدة لحفلة الغد، حسناً؟». «نعم، طبعاً سيدتي الأستاذة» أقول بشكر خجول أخفيه برأسي.

«وماذا لو رآني صاحب البدلة غداً في حفل الاستقبال وذمّني؟». نقفز ضحكاً ملتفتين إلى الحائط «لا. لا البدلات مثل القطط في الليل كلّها متشابهة». في هذه المرّة لم يفهم أحد محادثتنا، بالرغم من أنّ كوند *بانيا غارسيا* اقترب منّا بعد قليل ليسأل الأستاذة *حنّا* إن كانت تعرف مكان الحفلة، وهل سيكون في القاعة أو على متن الباخرة ليقرر ماذا سيلبس. أجابته، فهي دائماً حاضرة البديهة ولا ترتبك أبدا، قائلة له أنّها لا تعرف ولكنّها ستسعى لمعرفة الصورة كاملة وتقول له في الوقت المناسب مما يكفيه ليستعدّ كما ينبغي. نبقى لوحدنا لا شيء يشغلنا، فالمسؤولون مازالوا يتكلمون مع المنظمين والكولونيل *ليندروث* يقحم صوته مقاطعا نظام الكلام. هو أيضاً رجل يعرف ما يقول ويتحدّث أكثر مما يعرف. عنده قليل من التكبّر ولكنّه ودود ولطيف وهذه صفات يحبّ الكثير فعلها في البرتغال لمعرفتهم بقيمتها.

أخرج لفناء المدرسة وأتطلّع في اللوحات، والإطارات المذهّبة، كلّها صور لطلاب المدرسة وتحتها تسجيلات بالسويدية لا أعرف محتواها ولكن أفهم أنها تشير إلى أيّ فصل ينتمون والسنة والعائلة المدرسية.

أجل، لأنّه خلال سنوات كثيرة من الحياة وخاصة السنوات الأولى، تلك التي بين الطفولة والكهولة، والتي فيها ننمو في الذهن والتجربة، نمرّ بالمدارس ونجلس في مقاعدها المصنوعة من خشب فخور بمساندته المعرفة في الألواح السوداء حيث تخط الجمل والأرقام بالطباشير الأبيض الذي يوسّخ اليد، هذا صحيح، ولكن ينير الذهن. في الاستراحة تسمع الصياح في الممرات. البطن يكون مضغوطاً قبيل اليوم الأول للعودة المدرسية وقبل

الامتحانات. صخب وحزن ودموع تسيل وتبلل بملحها الدفاتر التي ننجز فيها الواجبات اليومية. ربما قضينا أياماً من حياتنا في المدرسة أكثر منها في البيت مع الأم والأب والأخ والأخت والكلب والقط. إنّها عائلتنا ومن لا صوت له هو من لا يحتفظ بصديق أو اثنين من ذلك الزمن ومن تلك الصداقات القوية قاهرة الزمن ومقاومة كل شيء. تظلّ دائماً قوية حتى أننا نقول بغرور «أصدقاء المدرسة». زمن جميل حقّاً ولكن الثابت عندي أنّي لم أعشه لكن أتخيله طيفاً وأعيشه. عمري ٢٢ سنة وبعد الفوز بهذا المارثون أستطيع أيضاً أن أسجّل في هذا السباق، سباق المعرفة. أفرح لأننا ننام في مدرسة فهي أفضل من بنسيون وهم مهتمون بنا جيداً.

أبتعد عن لوحة وقبل أن أصل للثانية تأتي صوفيا إلى ذهني. أريد أن أقول لها إنّي بخير وإنهم يعاملونني جيّداً وإنّي جاهز جدّاً وواثق بنفسي لسباق حياتي. أحبّها كثيراً. وأقول لها إنّي غداً سأذهب إلى حفل استقبال وأنّ استوكهولم رائعة وفيها ١٤ جزيرة وأن وأن وأن... كثيراً من الأشياء أريد قولها لها الآن ولكن سأحتفظ بها لأقصّها عليها، لاحقاً، عندما أعود إلى لشبونة. لاحقاً بعد الفوز بالميدالية التي هي أيضاً ميداليتها بفضل تضحيتها من أجل جعل حياتنا في البيت منظّمة وبفضل الحبّ وسلام الروح الذي تعطيني كل يوم، ولأنها قبلت أن تكون زوجتي وتحمّلت أوقاتي التي فرضت عليّ أن آكل متأخّراً أو أن أخرج باكراً. كانت تحضّر لي خبزا بمربىّ وموزتين قبل أن أخرج لأجري خلف الترامات. هي تستحق كل شيء، أعرف ذلك، تستحقّ منّي كل شيء ولذا عليّ أن أقدّر حجم المهمة، ليس عندي خوف من المسؤولية فأنا أتحمّلها كاملة. أفكار ترفرف في رأسي ورجلاي متحفّزتان للطيران نحو الهدف. أسمع طرقاً على باب قديم. التقاء الحديد مع الخشب القديم. لفحة من الهواء تدفعني من ظهري، تغلق أبواب الممرّ الذي يفتح على الشارع، ينضمّ الصمت إليّ ويأتيني بالطمأنينة. يكفي اليوم، سأنام.

-١١-
نبع الحياة

أستيقظ مذعوراً. أفكّر في الأستاذة *حنّا*. يحدث ذلك ربمّا لأنيّ أعرف أنّها منارتي هنا في هذه الأرض البعيدة، وأنّ اعتنائها بي هو أكثر ممّا أستحق أو أنتظر، ولأنّها اليوم ستدبّر لي بدلة لحفلة هذا المساء. لا تنقصني تفاصيل، هذا صحيح ومؤكّد، ربمّا تقنع آخرين ولكن ليس أنا. لست بخير لأنيّ أفكر في *صوفيا* وأكيد هي أيضاً تفكر فيّ. طيّب. أقرّر عدم التفكير، كما لو أن ذلك ممكنا، أقفز من السرير. آخذ تفاحة مسرعاً من مطعم المدرسة. لاحظت عدم رضا أحد موظفي المدرسة كان هناك. نحن في شهر تموز/ يوليو وليست هناك دروس ولهذا السبب نحن موجودون فيها. سأذهب في تبّان رياضي وسألبس قميصي الأبيض الذي غسلته *صوفيا* في المغسلة بجانب بيتنا في ساحة الغسل تلك في حيّنا حيث تتجمّع النساء ليغسلن ويضحكن ويتحدّثن ويتقاسمن الأحزان والأفراح وفي النهاية يتقاسمن نفس المآسي.

أخرج اليوم من يسار المدرسة. أريد أن أذهب مرّة أخرى إلى الملعب، ما أجمله، بقت عالقة في ذهني الساعة الكبيرة، ساعة البرج أو برج الساعة، لا أدري بالضبط من ينتمي للآخر، ما أعرفه أنّه قريباً سينتمي للجميع، لعالم هؤلاء الرياضيين القادمين من دول كثيرة ومختلفة. أجري وأجري ولا أتوقّف. أنا أتدرّب، أنظر إلى المباني وأشاهد التواريخ؛ ١٨٩٨، ١٩٠٣. أصل إلى شارع كبير يشبه الشوارع المشجّرة في لشبونة. هنا أشجار أخرى مقسّمة بشكل يعكس الأسلوب السويدي. هواء هذا الشارع عليل ونقيّ. سيارات قليلة. أمشي وسط الأشجار. أفتح مجالا في الهواء. يتحرّك النسيم

فتتمايل أوراق الشجر. باكراً ولكن الجوّ حارّ قليلاً، عشب، حديقة أطفال يلعب فيها الصبية دون إجبار على التعلّم. الآن هم في عطلتهم الثمينة جدّاً خاصّة خارج البيت.

يقصّ علينا أو بالأحرى يصرخ ليكون أكثر أمانة للصوت الخارج من فمه، الكولونيل *ليندروث*، وفوقه شارب يرقص فيقول أنّ هذه المدينة لها وجهان؛ واحد في الصيف ويمكن وصفه بالحار فيه فضاءات مفتوحة، والمساحات خضراء والطبيعة زاهية. سكانها يحبّون اللون البرتقالي. والأحمر يوشّح غروب الشمس، هناك في الأفق البعيد. سفن تشقّ مياه بحيرة *مالارين* وبحر البلطيق. حيوانات تركض بجانب أصحابها دون أي انشغال. سويديات وسويديون يأكلون في الشرفات، يفتحون أعلى السيارات. يذهبون في نهاية الأسبوع إلى الأرياف، أرياف كثيرة في بلد كبير وقليل السكان. أما الوجه الثاني؛ وجه الشتاء فهو أبيض، أبيض تماماً فالطبيعة والشوارع والطرقات لا تتقاطع مع الأسود إلا في الملابس الدافئة، المعاطف، الجوارب، والسراويل والقفازات.. كل شيء مغلق. البنايات، الماء متجمّد والبطّ يتجوّل على قطع جليدية ويسبح أمام القصر الملكي. برد قارس يكاد يجبر الناس على المشي ببطانية في الشارع.

ولكن داخل البيوت، كما ذكر لنا وزير البرتغال فالواقع مختلف إذ الجو دافئ ولطيف ومريح. إنّه زمن البيات الشتوي. شهور طويلة من الليالي السوداء تأتي، سوداء مثل الزفت تماما، لا يكاد يوجد نهار، ليس إلا نور خفيف يترنّح بين حالات مختلفة، من رمادي داكن في بعض الساعات ليعود من جديد للسواد لمدّة ساعة أو ساعتين أو حتى ساعات كثيرة وأيام عديدة وأشهر. طقس ثقيل، وأسود، ومظلم يجعل الناس تنغلق على نفسها. لا يتحدثون مع الآخرين. إنّهم يحتفظون بأحزانهم وأوجاعهم شديدة الإيلام لأنها سوداء ومظلمة وليست هناك أفراح لتقاسمها.

مدينة بوجهين، استوكهولم هذه، أنا محظوظ الآن لأرى أجمل ما فيها،

الابتسامات والانفتاح، الليالي التي لا تكاد تأتي. سبق وسمعت عن ناس بوجهين، هم ليسوا طيبين ولكن عن مدن بوجهين هذه أول مرّة. جئت لأجري ولكن ها إنيّ أتعلّم كثيراً فالرياضة ثقافة، نعم، نعم فشيء خاصّ معيّن يقودنا لنعرف شيئاً آخر. تخرج من ذهني أفكاراً بعضها جيد تستحق الاستغلال.

أعبر لشارع آخر، أوسترملسمغتان. الأرقام تتراجع على يساري ٨٢، ٨٠، ٧٨، ٧٦ وهذا الشارع مسجّل بـ ١٩٠٣ بلون السلمون، السمك الذي أكلنا هنا مراراً، شارع ممدود بخطوط بسيطة وجميلة. بعد بعض المئات من الأمتار أجد نفسي في شارع واسع ويميناً يقع نظري مباشرة على الملعب. إنّه برج الساعة، أجري، أجري شارع آخر قائم الزاوية «فاليلفاغن». أنا قريب وعلى وشك الوصول. أضطرب. ناس بقبعات يشترون تذاكر الألعاب، مسؤولون من لجان البعثات يمسكون بأعلام اللغات التي يتكلّمونها والمكتوبة على ظهر معاطفهم. في أعلى البرج هناك رجلان. واحد يمسك بسارية وآخر يلقي بحبل لتثبيت علم. ربما العلم البرتغالي؟ من يدري.

أواصل الآن مشياً خطوة فخطوة. الشمس تدفئني وتترك في روحي انطباعاً جيداً وراحة لذيذة. كم هو رائع هذا الكون، نعرق ليبرد الجسم. أنا عطشان، أشتهي كثيرا كرات اللحم تلك التي أكلنا في عشاء البارحة. نعم أشتهي لأننا تعشيّنا في الساعة الثامنة مساء هنا. كان باكراً جداً. السويديون يتعشّون باكرا، قالت لي الاستاذة *حنّا*، ويتغدّون الساعة العاشرة والنصف صباحاً، لا أتصوّر أنيّ آكل «كوزيدو» أو «بكياو» أو غير ذلك من الأطباق التقليدية البرتغالية تعدّها أياد مباركة في تلك الساعة الصباحية. رجلاي يتصبّبان عرقاً وذراعاي تفيضان ورأسي يغلي. أمرر عليه يدي، مبلل، شاربي يقطر. أنا أسيل ماء. لا أتكلمّ لغة أجنبية ولذا لا أستطيع أن أسأل أحداً. أبدأ ببرج الساعة وأقوم بجولة حول الملعب. من الخارج تظهر آلاف، بل ملايين قطع آجر متناسقة، في أحجام مختلفة لتكوّن ملعباً عظيم المدارج. إنه من الخشب، نعم لأنه في هذا الوقت يقيمون اعتبارا لحياة

الناس، فقط أساسه يجب أن يكون صلباً من الحجر والآجر. والخشب يسهل تفكيكه بعد نهاية الألعاب. تكبر في نفسي رغبة المجيء السريع ليوم ١٤ تموز/ يوليو، ذلك اليوم الذي سأجري فيه كالمجنون، فلا شيء ولا أحداً باستطاعته إيقافي حتى الفوز النّهائي. أعرف أن لا شيء سهلاً في هذه الحياة، أعرف أنّ السبعة والستين رجلاً الآخرين جاؤوا أيضاً إلى هن-من أجل الفوز، ولكن إرادتي لا بدّ أن تكون أقوى منهم. أحتاج جدّا لهذا الفوز وأريده. هذه الألعاب بالنسبة إليّ هي ألعاب *لازارو*. تأتي إلى ذاكرتي مرّة أخرى كلمات المنظّمين أمس. يهزّني النشيد، اللّحن الأجمل.

ماء. أخيراً أرى الماء، يتدفق شفّافاً، أريد أن أشرب ولا أفوّت ينبوع يخرج من جدار الملعب في شكل فم حيوان لا أستطيع تمييزه بسهولة لأنّ عينيّ مغطيتان بالعرق النازل على حاجبيّ. لم أستطع التأكّد إن كان أسداً مثلما هو شعار ناديّ في البرتغال أو كان فقمة. «انظر عنده شارب مماثل لشاربي». أضحك عندما أتأكّد من أنّه فقمة. بداية أفرك بالماء يديّ الوسختين والمتعبتين والمتعرّقتين حتّى تصبحان نظيفتين وبعد ذلك، وفي شكل صدفة، أضمّهما وأشرب جرعة ثمّ أعيد الكرّة. خلفي تكوّن طابور، رجل وامرأة يريدان أيضاً أن يشربا. أرتوي وأبتعد. أمسح قميصي المبلّل وقد توسّخ مرة أخرى. ولكن هذا ليس مشكلة الآن.

أقوم بجولة كاملة حول الملعب مبهوراً بعظمته، لم أر له شبيهاً إطلاقاً. بسيط ومتناسق جدّاً مع مشهد هذه الحدائق الخضراء المحيطة به من كل جانب. إنّ لونه الأخضر يعطي الراحة للنفس، صاف لا يريك العيون. يأتي رجلان يتكلّمان معي؛ واحد أطول منّي والثاني في نفس قامتي، يسألاني عن شيء لم أعرف ما هو ولا كيف أجيب سوى بهزّ كتفيّ. قالا شيئاً من نوع «شكرا، ليس مشكلة» بلغتهما وابتعدا ليقتربا من صبيّ يمشي هناك ليسألاه. هو واحد من أولئك الطلاب الذين تمّ استدعائهم

للمساعدة في تنظيم الألعاب. مساهمات سهلة ولكنّها مفيدة في نهاية الأمر. أرحت جسمي وملأت روحي في هذه القلعة. أمام الملعب أشعر بقوّة أكثر في داخلي. يجب عليّ الاغتسال الآن والاستعداد للذهاب مع الأستاذة *حنّا* لدكّان عمّها.

أنظر مرّة أخرى إلى ساعة البرج. أريد أن أكون في أجمل أناقة. سأطلب من *أرمندو كورتزاو* أن يلتقط لي صورة لآخذها معي إلى *صوفيا* عندما أعود إلى البرتغال. سأكون جميلاً وربّما سيضمّون تلك الصورة إلى المقالات التي سيكتبونها عنّي؛ أنا «*لازارو* الذّهبي».

-١٢-
لذة القراءة

«سيّد *لازارو* هل أنت جاهز؟ مازال أمامنا طريق طويل». أنا دائماً جاهز، أتمتم، لأرافق الأستاذة *حنّا*. أشير برأسي مجيباً بنعم، نخرج من المدرسة، أنا في حيويّة عالية بفضل الجري صباحاً، فقد تهوّأت رئتاي ونشطت وهدأت بعد القلق الذي انتابني، وتوسّعت شراييني وتمططت عضلاتي وانتعش دماغي. أشعر مرّة أخرى بالحرّ، حرّ السويد الذي أجهله على غرار الكثير من أبناء بلدي ولكنّي سأعتاد تدريجيّا على الاستيقاظ بصفة طبيعية وعاديّة. هي شابّة سويدية مرهفة ورشيقة وذكيّة ترتدي ملابس رائعة وأنيقة، اتّزانها غير قابل لأيّ تعديل وتتكلّم برقّة وفائقة المعرفة وهي مستعدّة بعفويّة لمساعدة نجّار عربات فقير على أن يعيش أيّاما مختلفة لا يريدها أبداً أن تنتهي.

«على تمام الاستعداد» أؤكد جاهزيتي لتضعف، وتتلاشى، وتتحطّم أيّة إمكانيّة تجعل من الأستاذة *حنّا* تتراجع عن سؤالها، ودعوتها، وهديّتها وألا تتبخّر، أيضاً، رغبتي في الذّهاب معها لزيارة عمّها والحصول على البدلة لأحضر بها الحفلة مساء. وكمن ينتظر طلقة البداية، ليست تلك الخاصّة بسباق الأرجل التي ستكون في غضون أيام، ولكن لأنطلق في اتجاه دكان الخيّاط. «هيا إذن» تطلب منّي آمرة «. سأريك ساحة لم تعرفها بعد اسمها ستوريلان». نمشي وكأننا واقفين. ندوس الأرض، ونجوب الشوارع، ونحلّق بين الحدائق. نحن هنا لكن لسنا موجودين، شاربي يميل فرحاً مسترخياً مع هبّات النسيم التي تحاول، دون جدوى، إيقافنا. نستنشق بقوّة الصدر. أجسادنا تتقدّم في تناسق وانسجام. نعرف وجهتنا. المباني تمرّ بنا

والشوارع تعبرنا. «هل تعرف سيد *لازارو*». تقول بحنّان «يأتي إلى هنا هؤلاء السّادة من *أوسترمالم*، أصحاب مصانع ليتبضّعوا مع زوجاتهم وأطفالهم، فالأشياء، والملابس، والأواني، والكتب القديمة، والأثاث الحديث كلّها ذات جودة عالية وأصليّة. يأتيها ناس من هنا ومن جهات العالم الأخرى، من أولئك الذين يستطيعون الدّفع والذين يملكون المال الكافي.»ابتسامتي تستمتع بما تقول الأستاذة *حنّا*. أنظر إلى المجوهرات اللامعة التي تزيّن عنقها النحيف واللامع. ملابس أنثوية فاتنة خارجة عن المألوف صمّمها بارعون في الموضة. إنّها تربك الحواس.

هذا الشارع الصّاعد يفوح برائحة الحدائق. المدينة تتنفّس. تلهث في هذا الحرّ دون أن تختنق. مثلّثات ورود تمّ جلبها إلى هنا من محطّات أوروبية أخرى للتمتّع بحرّ الصيف السويدي، وللتمتّع قدر الإمكان بأيّام زمن عابر، متقلّب، لأنّ فصول السّنة الأخرى ستحدّد لها مصيرها أمّا الخريف فسيضع نهاية لسكّتها. إنّها ورود رائعة تعرفها من شمّها، من عمر براعمها وتألّقها، من وهجها بألوان زاهية وحيّة متناسقة كأنّها قصيدة رائعة من إنشاء الطبيعة الأمّ. تأتي رائحة البحر. أذكر التّوابل التي جلبناها من الهند منذ عصر فاسكو دي غاما. إنّها روائح تنتشر في الهواء دون أيّ تحضير وتتسلّل إلى أنوفنا. كم أتمنّى الإمساك بالأستاذة *حنّا* شاردة، ولو لحظة، لإعطاء أيّة معلومة عن أيّ مكان ما في استكهولم لهؤلاء المارّة الذين يهيمون على وجوههم بلا هدف. جاؤوا للألعاب ولكن ينظرون إلى المدينة بعيون مشتاقة للمعرفة، يركبون التراموايات المجهّزة بعجلات حديدية وتسير على السكك. لا أحد يدفع ثمن التذاكر. إنّها طريقة راقية لحسن ضيافة الزوار القادمين من بلدان مختلفة. ها إنيّ أمسكها شاردة خلسة ومن دون أن تشعر بي أقفز بقدميّ الخفيفتين كصوف، كما كانت تقول جدتي، التي حاكت لي الجوارب والتي لم أستعملها حتى الآن لأنّ حرارة الشمس حالت دون ذلك. أقفز في لمحة بصر وأتسلّل بين رجل يضع قبّعة وامرأة تجري

بلا هدف وأقطف لها وردة. يتوقّف نبضي فأستجدي حواسي أن تتجمّع وتتّحد وتساعدني في تحقيق هذه الحركة اللطيفة التي أتمنّى أن تلقى اعترافاً وتجاوباً من عيني الأستاذة *حنّا* الزرقاوين. أن تتجمّع في وجهي طاقة الإقدام، إقدام رجل بشارب محفّف ومستقيم ودون إذن من أيّ كان على قطف وردة وإخراجها من عائلتها وحيدة وفريدة ليقدّمها هديّة طامعاً في لفتة رقيقة تجاه الأستاذة *حنّا*.

لا. لا أستطيع القيام بهذا لأنّ الطبيعة لا تستحقّ الإساءة إليها. ليس لي الحقّ في أن أمنعها من أيّة زهرة تشاء، أن أقطع حلمها الذي يغذي حياتها حتى آخر الخريف السعيد، ومن الاستماع لمديح العابرين «ما أجملها وردة». «يا لها من ألوان». «انظر كيف تزيّن المدينة». أن يدوسها كلب مربوط بحبل صاحبه. أن تلمس برفق وحنّان بستانيّ يعتني بلونها ويحفّزها ويتكلّم مع بتلاتها.

نعم. الأستاذة *حنّا* تستحقّ. كانت إلى جانبي في كل شيء. ساعدتني ودعمتني. نادتني بالسيّد واحترمتني بالرغم من مستواي الدراسي. تعاملني على قدر المساواة دون تمييز اجتماعي أو ثقافي، مثل أيّ رجل سواء أكان متديناً أم لا. متسيس أو لا. فإن لم تكن هي معي لكان عليّ أن أقضي هذه الليلة منزو في ركن تلك الغرفة المربّعة ذات السقف العالي نائماً وحيداً.

لا. فالاحترام الذي تستحقّه الأستاذة *حنّا* على كل هذا لا يحصى، تستحقّ ذهباً عوض هذه الزهرة ورديّة اللون. لن أقطف حياتها. أبحث عن فكرة أخرى أفضل، مقبولة وذات حسّ لطيف وبعد إنسانيّ. لا بد أن تظهر لي. لا بد أن أجد طريقة أخرى لأبلغ بها سعادتي للأستاذة *حنّا* وأصطاد لها ابتسامة أو نظرة مثيرة. «هل هذه بخصوص الألعاب؟» أسألها لمّا اقترينا بخطى عفويّة من بسطة تعرض كتباً موضوعة على مثلث من خشب الصنوبر. من يدري ربّما يكون خشباً برتغالياً. كتب كثيرة ولكن من بينها شدّ نظري كتاب له غلاف بنيّ بورق قديم أتى عليه الزمن. زواياه مثنيّة.

على الغلاف صورة لمسار سباق الماراثون وفيها عدّاء يقطع شارة الوصول ويداه مرفوعتان احتفالاً بالفوز. «نعم. سيد *لازارو* هذا روبورتاج مصوّر للألعاب الأولمبية الأولى في العصور الحديثة، في أثينا سنة ١٨٩٦». هو كتاب بلا كلمات، مكتوب على مقاسي. أسألها إن كان بوسعنا الدخول إلى محلّ الكتب هذا، ولكن ليس دون التأكد من أنّ عمّها لن يغضب من تأخّرنا وأنّه لن يبقى ينتظر هذا المسكين الرّاغب في حضور حفلة هذه الليلة بالبدلة في يد والقبعة في أخرى. أو ربّما يعتقد أنيّ تهت في شوارع استوكهولم. تقول لي بصوت خارج بين الابتسامتين المرسومتين على شفتين مكتنزتين ملوّنتين بالأحمر الناصع يعكس تعارضاً واضحاً مع شعرها الأشقر، أنّه مازال لدينا بعض الدقائق لقضائها، وأنّ عمّها لا بدّ يكون مشغولا في كثير من الأعمال، ولذا لا يستغرب إن وصلنا متأخرين قليلاً. هذا جيّد. كنت متوجّساً ألا أحترم انضباط السويديين إذ أن الموعد الساعة ١٠ يعني الوصول الساعة ٩ و٥٠ دقيقة أو ربمّا قبل. أفتح بعناية الكتاب بعد الحصول على إذن الكتبيّ. هو شيخ نرويجي عمره ٧٣ سنة وهو، حسب ما قالته لي الأستاذة *حنّا* ونحن في طريقنا إلى محل عمها الخياط، يسكن في استكهولم منذ عشر سنوات. جاء إلى هنا يتبع قلبه. عنده عشقان؛ الكتب وامرأة سويدية درست معه الاقتصاد في أوسلو. ظلا مترافقين معاً إلى حدود السّنة التي تمّ فيها الطلاق بين السّويد والنرويج وهذا ما دفع بالسيّد مورتنسن إلى الزواج منها والقدوم إلى السويد. يظهر أنّه سعيد. عنده حبّ صادق للأعمال الأدبية. يظهر ذلك من خلال الطريقة التي يجيب بها دون توقّف. أصابعه تشير دون تردّد الى اليسار، إلى فوق، إلى الرفّ، إلى اليمين. على طاولة خشبيّة مدهونة بالأزرق الداكن ومنصّة من المرمر الأبيض حيث ترتاح كومة من الكتب على طبقة من الغبار. علوم، أدب، فيزياء وكيمياء واقتصاد وكل شيء. نظام ومعرفة ورجاحة عقل النظام الشمالي. يعرف كلّ الكتب عن ظهر قلب ويعرف ما بداخلها، وما

هو أبعد؛ تاريخ حياة الكتاب نفسه وكم يداً لمسته وعيناً رأته وتفحصّت نصّه. كلمات كثيرة بقت في الذاكرة أو ضاعت قليلاً في الهواء ليمسك بها أحدهم.

أقلّب صفحة أخرى ثم أتجاوز صفحتين وأمسك بثلاث أو أربع وأقلّبها. إنّها قصص انتصارات الأبطال لأنّه، وكما يقال هناك في حيّ *بايرو* ألطو في لشبونة، التاريخ لا يسجد للضعفاء. أريد أن أفوز. عندي كل شيء لأفوز أو تقريباً كل شيء. في منتصف الكتاب أسوّي الأوراق التي تصفحّتها وأتطلّع إلى التي لم أشاهدها بعد. أتفحّص الغلاف المتين الملفوف في الجلد. حروفه فضيّة. أغلق هذه الكتاب وحكايته على مرأى من السيّد مورتنسن الذي بعين واحدة يتحدّث مع الأستاذة *حنّا* ويريها الفضاء، الذي هو حياته، وبالأخرى يراقب كل حركة أقوم بها. إنّه مراقب يقظ. لا يعنيه كثيراً إن كنّا سنشتري منه كتاباً ما أو لا. ليست نقود المبيعات التي تحركه أو توقفه، فأبواه لديهم أراض زراعية في النرويج تكفي مداخيلها ليعيش هادئاً سعيداً. هو يحبّ الكتب. يريد أن يتحدّث ويسمع وأن يسمعه الآخرون. يحبّ متاهة عالم الثقافة والمشاهد الأدبية الساخرة والمغوية. متعة يحبّ أن يتقاسمها مع أشخاص آخرين يشاطرونه نفس العشق. لا شيء أسعد من رجل مثله.

الكتب هي أطفاله لأنّه لم ينجب، فصحة زوجته لا تسمح بذلك. دمعة وحيدة متعبة هاربة تركت عينه اليسرى. تعب أسود. آلام وأحزان ماضية في تجاعيده. رجل ثابت وجيّد مع الحياة. ليس له طموحات أبعد من العيش في مكتبة وتأسيس متحف للكتب يظل كنزاً للآداب. أمسك الكتاب بيدي اليمنى وأضعه ليرتاح خفيفاً على المنصة المرمرية التي تنفث غباراً يتطاير ليقع على كومة أخرى من الكتب لمّا يزل السيد مورتنسن بصدد تصفيفها وتنظيمها على مهل وبصبر كتبيّ شمالي ينتظره شتاء طويل، ومظلم طويل الساعات والأيام لينجز ما يهبه الخيال في كل لحظة.

فجأة حرّك العجوز النرويجي ذراعه الأيمن المتجعّد. شعره أشقر متساقط ومصفرّ. وأشار إلى أعلى، هناك قليلاً فوق منتصف الرفّ الأخير الذي تسنده قطعة حديدية توجد تحتها عجلات بلاستيكية صغيرة بيضاء تجعل منها سلّماً يتحرك يميناً أو يساراً، يسير بين الرفوف بحثاً عن الكتاب المطلوب. الأستاذة *حنّا* تندفع إلى الدرج. السيّد مورتنسون تقدّم خطوة متردّدة. يمسك في يده اليمنى المرتعشة عصا خشبية لا تنتهي بنصف دائرة مائلة إلى الأسفل، كما هو حال أغلب العصي، ولكن هذه تأخذ شكل كرة خشبية ملفوفة في الرخام الوردي. كعب حذاء الأستاذة الأسود حادّ المنقار، مطليّ، كعب عال يحمي من تقلبّات الطقس والتبدّلات الأخرى للأرصاد الجويّة. الساق المهذّبة للأستاذة *حنّا* تدوس الدرج الأسفل من هذا السلم في حين تبقى الساق الأخرى في نفس الدرجة. الخطوة الثانية للساق الأولى والثانية للساق الثانية. تتسلّق بخفة نجمة فتصعد تنّورتها السوداء التي ليس لها من الطول سوى القليل. تصعد حتى تكاد تلامس الفخذين الرقيقين. تحفة. منحوتتان سماويتان ولا شكّ. أيّ بشر يعرف معنى الجمال لا يستطيع أن ينفي انبهاره حين يرى التنورة تصعد. يقتلني الخيال.

ذهني يمنعني من الذهاب بعيدا. أنا رجل جدّي. أجذب تنّورة الساتان إلى أسفل. الأستاذة *حنّا* تواصل دون انقطاع. تصل قرب السّقف وتتردّد بين كتابين. جواب السيد، مورتنسن، يبدّد الشكّ العالق. تأخذ كتاباً قشدي اللون، حروفه سوداء مزركشة بيدها اليسرى فيلمع خاتم ذهبيّ في أحد أصابعها الصافية وتنزل. تضع بحنّان الكتاب على الطاولة التي تصفحّت عليها الكتاب الآخر. السيد مورتنسون يقترب. يعرج. هو عجوز تعب من الحياة لكنّه حكيم. الاستاذة *حنّا* تشرح لي أنّه كتاب قديم يعود من منتصف القرن الرابع عشر، كتاب عن تاريخ الامبراطورية السويديّة التي كانت تتبعها النرويج، بلاد الكتبيّ هذا. أتابع وأقول «أجل». في بعض المرّات ثلاث أو

أربع. لا شيء يجول بذهني. ما زلت أستعيد ما شاهدت، دون إرادتي، وما تخيّلت رؤيته. أستحقّ الغفران.

«حظاً سعيداً في السّباق». يتمنّى لي في لغته السيد، مورتنسون، والأستاذة *حنّا* تترجم لي. أشكره وأنحني إعجاباً ونتصافح باليدين. نخرج. السّاحة تكتظّ الآن أكثر، ضجيج وسيارات وناس وحركة ورضّع في الأحضان وصغار في الأيدي. ضجيج وصخب، لا يزعجني، بل يحفزّني. أحبّ الريف ولكن أنا أصيل المدينة. بعدها يظهر دكان فآخر. وآخر بواجهة زجاجية ليظهر ما يعرضونه للمارة. محلّ حلاقة. يحلقون الشعر ويقلّمون الشوارب. في هذه الأيام لا يوجد رجلاً تقريباً يقدّر ما ليس عنده. أنا مختلف عن الآخرين ولكن في هذا الشأن لا أريد أن أكون استثناء.

«الأستاذة *حنّا*، ماذا لو قمت بتهذيب شاربي ليتناسب مع زيّ اللباس هذه الليلة؟» وأطلق، هكذا، قهقهة عالية. تخرج منها تلك الابتسامة الجميلة القاتلة «فكرة طيّبة، أرى أنّك مغرور، سيّد *لازارو*». متحمّسا، ألقي بنظرة إلى واجهة المحلّ خلفي فأرى أنّي قد شفيت. ترى هل رأت أن تعليقي غير متناسب؟ «هل تعرفين، ليس هذا ما يشغلني كثيرا». هكذا أسعى لإيجاد مخرج للإحراج. «المارثون هو حلمي والنّجارة أسلوب حياتي وليكن ما يكون، فليس في كل يوم أستطيع أن أكون ضيفاً في حفلة راقية وأنيقة كهذه». «صحيح. معك حق، سيدي». تردّ الآن بجدية أكثر، وحسب ما يظهر لي، هي راضية بما قرره ضميري.

-١٣-
زيّ غريب

أدفع الباب ذو الزجاج البلّوري من حافته الخشبية المهترئة من كثرة لمس الأيادي. أشعر بنسمة قويّة تمرّ. إنّه عطرورديّ نسويّ يدخل إلى خياشيمي وينعش دماغي. واحدة شقراء معتدلة الطول. هبة من السّماء وأخرى ببشرة سمراء، تخرقان صالون الحلاقة وتلتفّا بي، واحدة من كل جانب في اتّجاه مكتب مرمري عليه آلة تقييد حديدية تستعدّ لتسجيل عملية نقدية جديدة. اتركهما يمرّان قبلي. الأستاذة *حنّا* تسوّي كتفيها بتلك اللّمسة الأنثويّة. أبتسم لها حتّى نغيّر حالة اللحظة. «هل مازال عندنا وقت؟» أسألها. لا لشيء إلا لكسر هذا الصّمت الذي عمّ المكان. «نعم. نصف ساعة، سيد *لازارو*» ردّت بعد أن تفحّصت ساعة على الجدار موضوعة فوق صورة لامرأة سبعينية شعرها أشيب وتضع ميدالية ذهبيّة على صدرها، وخواتم ثمينة في أصابع يديها.

ننتظر بعض الدقائق. الطابور طويل هنا بالرغم من أنّه للرجال فقط. يجيء دورنا الذي انتظرناه بصبر وقلق بسبب خشية التأخر عن الموعد مع عمّ الأستاذة *حنّا*. هل يمكنهم في تلك اللحظة، ومن دون حجز سابق بأيام أو أسابيع أو حتى أشهر، وهذا هنا عادة وعرف، حلاقة شعري وتقليم شاربي من أجل السباق الكبير؟ أجابوني بلهجة برتغالية منحوتة بالثلج أنه عندهم فراغ بعد ثلاثة أسابيع الساعة الثامنة وخمس وعشرين دقيقة صباحاً. ظننت أنّه يمزح فضحكت واضعاً يدي اليمنى على فمي. لكن ذلك كان جدياً. سيفتح باب الحظ إن انتظرنا خمس دقائق، إذ هنالك

سيدة من *أوسترمالم*، تقيم حالياً بالضبط فوق هذا الصالون فيحدث أن لا تحضر في موعدها. أراد القدر وتحقّقت الأمنية. سعيد هذه المرّة، على الأقل أن يكون الحظ إلى جانبي فيريحني من رؤية شعري ينمو وشاربي في حالة فقر مدقع طيلة أيام عديدة.

غسلن رأسي ودلكن أفكاري بشامبو برائحة الفواكه. أشعر بيدين صلبتين ومتجعّدتين وغليظتين، لامرأة في الأربعين كانت الطبيعة قد قاطعت جمال وجهها، تألمان رأسي. الأستاذة *حنّا* تجلس على مقعد من الجلد الأبيض وتمسك بمجلّة موضة نسوية، تتصفّحها وأخريات منهن من تنظر إليّ بنظرة هاربة، نظرة صبيّة ومكر سيّدة كبيرة، وأخريات ينظرن في الفراغ ويفكّرن في شيء ما. أو في أحد ما. يضعن منشفة بيضاء على رأسي وتدلاّني على الكرسي حيث يمكنني الاسترخاء ولو قليلا. المرأة التي تغسل شعري في نفسها التي ستحلقه وستهذّب شاربي.

يصيبني الذّعر فأطلب النّجدة يائساً من الأستاذة *حنّا* لتنقذني. ينقطع عنّي التنفّس ولا أكاد أسمع صوت مقصّ التشذيب. لا أحد يتجوّل في القاعة. الصّوت يهرب منّي والأضواء تخفت والمرايا تكفّ عن عكس الصورة المعلّقة هناك، أو ربما كانت معلّقة. كل شيء توقف. شذبوا الشارب أكثر مما ينبغي. تائه. كففت عن أن أكون فرانسيشكو *لازارو*. الظلام يسيطر على عقلي والدموع تتراكم في نفسي. لا أستطيع التفكير أو البكاء أو الضحك. إنه الاضطراب. «أستاذة *حنّا* لقد قضين على شاربي». أشكو لها مصيبتي بحثا عن انتباهها. عن كلمة، عن لفتة، عن نظرة رقيقة، عن مواساة، عن لمسة أدفن فيها مأساتي. تجري نحوي وعيناها حائرتين. تمسك يداها بيد النجار. أمسك يدها بخفة. تتشابك أصابعنا. تهدئ غلياني وتلتمس مني ألا أنزعج كثيراً من التشذيب الزائد قليلاً في الشارب. نمزح مباشرة. تطلب مني التريث فالشارب متناسق. أهدأ وأنسى.

تجلس في الكرسيّ المحاذي امرأة شابّة شقراء، شعرها تقريباً أبيض وعيناها زرقاوان. تلبس الأسود ومن الأكيد أنّها تستعدّ للذهاب إلى إحدى الحفلات، وما أكثرها هذه الأيّام في استوكهولم. تنظر إلينا وتكاد تختفي في المرآة. تتظاهر بابتسامة وتسألني شيئاً لم أعرف أنّه سؤال إلا من خلال النبرة الأخيرة. كانت الأستاذة *حنّا* قد فسّرت لي أنّها تودّ أن تعرف من أيّ بلد جئت. «البرتغال» أجيب بشوق متحمّس عندما كنت أدير رأسي يميناً حيث كانت تجلس أجمل هبة، في يدها مجلّة وفي الأخرى فرشاة. «هذه أول مّرة تزور فيها السويد؟» تسألني مرّة أخرى، الأستاذة *حنّا* تترجم ولكنّها بدأت تتضايق وتفقد الصّبر. بعد السؤل الرابع تبتعد *حنّا* «عفواً أريد أن أذهب إلى الحمّام»، تخبرني. حين أدارت بظهرها ينتهي الحوار مع جارة الصدفة ولكن هذا لا ينفي توتّري من رؤية شعري الأسود الناعم مبلّلاً ومرمي حولي في بلاط القاعة. السلام على شاربي، أيتها السماء.

عقارب الساعة المعدنية المذهبة التي تملأ الجدار الأليم ورائي تتقدّم بلا رحمة، الوقت يضغط، بعد ١٠ دقائق تعود الأستاذة *حنّا*، جفف ما بقي من شعري. انتهى كل شيء. تلفّ السيدة مرآة دائرية حول رأسي تنعكس على أخرى أمامي مربّعة، فرأيت بأمّ قصّة الشعر الجديدة. أسمع «تاك، تاك» شكر سويدي في شكل مديح. خرجت وفي نفسي قليلاً من الإحباط. الأستاذة *حنّا* تعود بشعرها الباهر، تضحك حين ترى شعري. أما المرأة صاحبة اليدين الغليظتين والوجه الصلب، الصارمة والثابتة فلا تترك أي شعور ينتشر ويعبر ومع ذلك ابتسمت.

الشوارع مكتظة بالرائحين والغادين من سكّان استوكهولم والسيّاح وغيرهم كثير. لا أستطيع تحديد إلى أيّة مجموعة ينتمون. الأستاذة *حنّا* تواصل شرحها لي لتاريخ المدينة ولأهمّ شوارعها ومن عاش فيها من كبار الشخصيات والرّموز مثل البيت الذي سكن فيه ألفريد نوبل، أو الكاتب

السويدي، *أوغست* سترندبرغ، المتوفى في مايو الماضي. نمشي كثيرا. أحبّ أنِ أمشي وأنشّط رجليّ. في شارع صفايفاغن نركب ترام يشبه ذلك الذي عندنا في لشبونة والذي كان وسيلة تدريبي، فقد كنت أتبعه جرياً بين البيت والعمل. حكاية سأرويها للأستاذة *حنّا* المغرمة بالحكايات العجيبة. خلال هذه الأيام هناك إعفاء من دفع ثمن التذاكر. إنّها الألعاب الأولمبية وهذا سبب كاف لهذا القرار الجيّد.

نجلس بجانب بعضنا على مقاعد خشبية رقيقة منفردة، ولكنّها قوية كالحجر. كأننا لم نر بعضنا منذ لحظات. يدخل رجل عجوز يحمل جهازاً أراه لأول مرة. هو نوع من عربات الرضّع ولكنها للكبار ويمكن تسميتها بعربة العجائز. أشير إلى المقعد وأستسمح منه الجلوس «هو لك تفضّل». رجل هشّ غير متوازن، ينظر إليّ متعباً، جفونه تكاد تلتصق ببعضها وتجاعيده تجبره على مجهود عظيم لتبقى عيناه مفتوحتين. يواصل الارتجاف ويشكرني بالسويدية. هذا فهمته طبعاً. يمسك عربته الصغيرة ويجلس ثمّ يضعها بشكل مناسب بجانب مقعده. نعم فإن تكون شماليا ليس هناك عمر يغيّر من عاداتك وانضباطك. يحرّك رأسه بنوع من الألم ويعود ليشكرني «العفو، العفو» أردّ عليه. كلّ المقاعد محجوزة. لا مكان تقريباً للواقفين. رجل قويّ جدّاً وطويل، عنقه غليظ ويمسك بممسكة في سقف الترام. يتعرّق. لا بدّ أنه جاء يجري ليلحق بالترام، وأجدني مجبراً على أن أتحمّل، للحظات، ودون أيّة إمكانيّة للهرب، الرائحة الكريهة الخارجة من إبطه. يحمل في يده الأخرى عربة أطفال. امرأة في الستين تحمل طفلاً صغيراً في يد وفي الأخرى كيس مشتريات. الأحسن الجري خلف التراموات عوض ركوبها، هكذا أقول في داخلي. تتعاقب المحطّات وإن لم تخني الحسابات، ففي كل محطة يدخل ركّاب أكثر مما يخرجون وهي معادلة إيجابية ولكنها في هذه الحالة لا تعني شيئاً كبيراً.

حيوات كثيرة هنا داخل الترام، ناس مختلفون، من استوكهولم والبرتغال، مثلي أنا، واثنين من جنوب افريقيا هناك في الآخر. عرفتهما من زيّ الألعاب ولكن الآن يذهبون جميعاً إلى لحظات نزهة يحملهم إليها هذا الترام. ركاب من كل بلد ومدينة. عند نزولهم اختاروا طرق وحيوات وحكايات مختلفة ليقصّوها لأحفادهم مثل التي سأحكيها أنا لابني عندما أعود للبرتغال متوّجاً بميدالية ذهبية، فـ*صوفيا* وبعد أن كانت تعتني بنفسها ستصبح تعتني بثلاثة. كم أتمنى الآن لو أحضنها! لو أجدها أمامي فجأة «لقد وصلنا سيد *لازارو*، هيّا علينا أن ننزل». أطيع دون تردد اقتراح الأستاذة *حنّا*. نخرج من ازدحام الترام ونمشي. صبيّ يحمل محفظة على ظهره يفرّ من بين الأرجل والعجوز الذي أعطيته مقعدي أومأ لي شاكراً.

«بلومكفيست». تقرأ لي الأستاذة *حنّا* لافتة منيرة تلوح فوق باب محلّ خياطة السيد صطافان. يحييني «هاي» فأردّ «سعيد بمعرفتك»، وألتمس من الأستاذة *حنّا* أن تنقل لعمّها في لغة مفهومة شكري الخالص بتوفيره لي بدلة أحضر بها حفلة الليلة. «لا تهتم فصديق بنت أخي هو صديقي أيضاً». كانت إجابة محبوبة ترفعني لمرتبة لم أكن أتوقّعها في زمن قصير. تقودني داخل محلّ الخياطة وهو مبنى قديم من عام ١٨٣٢. واجهته بالآجر وسقفه مائل مثلما تنصّ على ذلك القواعد المناخية في شمال أوروبا وأبوابه مطلية بالأزرق. سقف خشبي يميل للصفرة. صور رجال في ملابس أنيقة. يقصّ لي في ثلاث دقائق ثلاثين سنة من عمر دكانه ومن مرّ به من وجهاء الساسة والرياضيين وأكاديميين لامعين وناس آخرون بسطاء صاروا أصحاب شأن مثلي أنا يطلعني على سترات بخيوط مذهبة وأحذية سوداء...وبناطيل مدرسية وركن هناك ستار يخفي دوائر منسوجات وصوف وقطن وسرير وكتان منها منه جاهز ومنها في اللّمسات الأخيرة.

وضع شريط على كتفيّ للقياس، وفعل الشيء نفسه للرقبة والذراع

الأيسر، فالساق اليمنى وبعد ذلك الحزام والكتف صار جسمي مرقّما. يفتح الأستاذ *صطافان* خزانة طويلة وعالية ولامس السقف أبواب خشبية متحركة تجعل من محله بيت فنون متميز وعميق. وخلف تلك الصور الحائطية يظهر عمل وجهد وبراعة.

-١٤-
ليلة رقص

الشمس عنيدة هناك في الأفق ولا يظهر أنّها تريد أن تنام، وعندي اقتناع راسخ أنّه لا توجد ساعة في هذا العالم يمكن إسكاتها ولو جلست الشمس وتناقشت وتحاورت مع ملك النجوم فإنها ستتمسك بموقفها وتظل سيدة على هذه المدينة، مشعّة كما يحلو لها. سيارتان تلفّان المنعطفات وتدوسان الجرانيت ومطاط العجلات يحتكّ بقوّة في المنعرجات. وزير البرتغال يستقلّ السيارة الرسميّة الأمامية والعلم البرتغالي يرفرف في المسند الحديدي الذي يمنعه من الصعود حالاً إلى سماء استكهولم. على يميننا يغطّي العشب حقلاً، وحيداً، وقوراً. هو من تلك الحقول التي تجعلك تجلس وتتربّع، تنظر إلى السماء وتكتب بخيال، وإن طاب لك تقفز حرّاً وتهرب من ضغط الواقع، ومن الأماكن العامّة وترحل بعيدا وتتخطّى الحواجز وتفتح أبواباً مجهولة. صوفيا.

في داخلي أشعر بيديها تتعرّف على منعرجات وجهي، وتلمس قفاي. تضيعان بين شعري الكستنيّ. أغلق عينيّ وأفتحهما مرات، وجهها يخترق تفكيري ويحتلّني بالكامل. أفكّر فيها كثيراً وأشعر بغيابها وأحسّ بفضائلها اليومية، كلّها دون استثناء، كلّ ميزاتها رائعة. فأنا رجلها الذي اختارته من بين الكثيرين في لشبونة، في البرتغال وفي كل مكان. وهي امرأتي التي أحبّ جداً. أتذكّر أيضا *مارتا* خطيبتي السابقة بشعرها الأسود المموّج كليلة شتاء. تعلّق قلبي بها بين عناقيد العنب. في تلك الأمسيات عندما كنت أهرب من أبي مدّعيا زيارة بيت عمتي، *جاسنتا*، وأذهب لألتقي ب*مارتا* خفية. كانت تسكن في ذلك الشارع الصغير بين *ناسيسدادش*

وبرازيرش. خلال أمسيات ماكرة كنا نلعب خفية لعبة الغمّيضة. نلعب ونمرح ونضحك. في كل دقيقة كنت ألصقها للحائط وأقبّل ثغرها بحرارة ولهفة، نتمايل معاً في رغبة متوحّدة. احتكاك بكامل الجسد. أيادي تصعد وتنزل. نتعرّق. أداعب شعرها. تأخذ فستانها من الأرض وأنا أغلق لها الزر المفتوح منذ عشر دقائق. المرآة تؤكد لي فتنتها. كانت جميلة ومنعرجات جسدها أعطت الحق للفستان في الاستقلال عنها والسقوط.

«سيد *لازارو*، هل تحبّ أيضاً كرة القدم مثل كل البرتغاليين؟». تهمس لي الأستاذة *حنّا* وهي تنظر إلى المقعد الخلفي. «نعم. أحبّ. لعبت في نادي بنفيكا الرياضي في الحيّ الذي أسكن في لشبونة قبل أن أكتشف حبّي الأبدي للمارثونات». كان جواكين *فيتال* يجلس إلى جانبي وأرماندو كورتزاو يجلس في طرف مقعد هذه السيارة. لا يعبئان بحديثنا، يشاهدان المناظر ويمططان ربطة العنق ويجذبان المعطف ويلقيان نظرة على الحذاء جيّد الطلاء. نذهب. «جيّد جداً أن أرى أن الرياضة هي دم السيد *لازارو*». تحمسني الأستاذة *حنّا* التي تضيف إلى العبارة تلويحة فجائية بيدها فتلقي بشعرها الأشقر خلف ظهرها ليخفي لثوان وجهها الجميل كلوحة صمّمها أعظم الفنانين.

أدخل وأظل مرعوبا. سفينة باهرة من الخارج والداخل وقاعة واسعة يضيع فيها البصر. كثيراً من الناس تحمل كؤوساً في أيديها. خدم بمعاطف بيضاء وسراويل سوداء يخترقون المدعوين وينزلقون بين أحاديث الحضور.

وزير البرتغال والسفير، *أنطونيو* فيجاو، انزويا في ركن وغرقاً في حديث مع نظيرهما الأمريكي. الدكتور، موبيرين دوس *سانتوس*، هو أيضاً مشغول مع أصدقاء آخرين من اللجنة الأولمبية الدولية التي بينها، *باراو بيا*ر دي كوبرتين، رئيسه الذي وبعد أربعين سنة من العمر الغضّ أراد أن يهب جسده إلى هذه المغامرة. من عمق القاعة تأتي موسيقى هادئة بعزف موهوب

على بيانو. باهر. يقترب منا القائد، *جايمس موريس*، ويحيينا، ويسألنا عن انطباعاتنا الأولية حول استوكهولم وعن تطلعاتنا حول الميداليات ملخّصاً، هو نفسه، أنّه بالدرجة الأولى يجب التركيز على قيمة المنافسة وتقديم ما هو أفضل. أستمع إلى كلماته مترجمة من طرف *أرمندو كوارتزاو* وأحتفظ لنفسي بحقّ الاعتراض وأسأل. في النهاية لماذا وجدت الميداليات أصلاً؟ أليست للمنافسة عليها والفوز بها؟ أنا أريد الذهبية وجئت من أجلها. نكتشف العديد من الأطباق المتنقلة بين الضيوف على هذه السفينة. قطعة خبز مدوّرة بالسلمون وحبّة زيتون ربما تكون برتغالية؟ وأخرى بالجبنة مشدودتين بمسواك. أشرب ماء فقط ولم أقترب إطلاقاً من الكحول. أستعمل منديلاً مثلما يفعل السادة الآخرون. أشعر بنفسي على راحتي شيئاً فشيئاً فإن كانت الأشياء تقاس بالمسافة بين هذا العالم وعالم النقش على العربات، فلماذا لا أشيد بمهنتي التي أعرق فيها وترفع جداً الروح المعنوية فيّ؟.

لاحقا، بعض الأزواج الموجودين منذ البداية وآخرين مجهزين للمناسبة يبدؤون الرّقص أمام الأوركسترا. تتمايل أجسادهم مع ألحان الموسيقى. ألحان متناغمة مع مهارات متعدّدة ورغبات مختلفة. أقصد طاولة منزوية. عليها ثلاثة أطباق تهدي الشوكولاتة للضيوف، يا لضياعي. أمسك بقطعة حلوى سويدية بالنعنع وشوكولاتة مسكوبة. سمعت أحداً بجانبي يتكلّم. امرأة شقراء ذات كتفين قويين وعضلات جيدة، هي عداءة فنلندية، عرفتها من لباسها الذي ترتديه. ينتابني الذلّ وأنا أستنجد بـ*أرمندو كورتزاو* لينقذني من ورطتي. عليه أن يساعدني في هذا الحديث المفاجئ وغير المتوقع. فالزميلة، *أنغريد سولسكاين*، من بين المشاركين في مجموعة رياضة هلسنكي وهي مشاركة هزيلة لمجموعة صغيرة استطاعت الحضور بعد مجهود جبار في إقناع الروس بالسماح لها بالمشاركة بصفة مستقلة باعتبارها إحدى دوقات إمبراطوريتها المشاركة في الألعاب الأولمبية. مشاركة دون علم ولكن تحمل لوحة مكتوب عليها اسم البلد كمثال على المثابرة.

تريد أن تعرف كيف هو البرتغال. تحسدنا على طقسنا وتمدحنا. «سعداء ومبتسمون أنتم». نشعر بالفخر لهذا المديح فبالتأكيد نعمة الطقس هبة عظيمة من إله الشمس وأوقاتنا دافئة ومشرقة. القائد موريس يلامس كأساً زجاجياً بسكين. صمت كبير في القاعة انتظاراً لكلمة الترحيب التي سيلقيها ويعبّر فيها عن أخلص تمنيّاته للرياضيين الأمريكيين وباقي الضيوف بالتوفيق ثم يحيل الكلمة لسفير بلاده الذي يشكر حسن الضيافة ويضع خدمته «على ذمه الجميع لتوفير ما يحتاجه الوفد في هذه الأيام» ويليه رئيس اللجنة الأولمبية الأمريكية الذي أثنى على التنظيم السويدي وعلى المجهود العظيم للقبطان *ليندروث*، الجالس هنا على يميني، وعلى الطريقة التي استقبلوا بها هنا. يشير بالكأس في صحة الألعاب. «سكال» بالسويدية والموسيقى تملأ المكان مرة أخرى وتنطلق الأصوات تغنّي بألحان رقيقة. أذهب مسروراً مرّة أخرى لطاولة الشوكولاتة وآخذ واحدة طويلة مصقولة رائعة، وآخذ أخرى لأهديها لزميلتي الفنلندية لأنّي انسجمت معها وأريدها أن تحبّ البرتغاليين أكثر. هكذا هي الحياة علينا أن نكون لبعضنا كما كانت تنصحني جدّتي في *صوبرال* دي مونت *أغراسو*. يسخر مني خفية، كوند *بانيا غارسيا*، الذي أخبرته بالكلمات المتبادلة بيني وبين الزميلة الشمالية.

«مساء الخير أيها السادة، أنا *أكسل* فريثيوف *كومليان*، وأنا سعيد بمعرفتكم». يحيينا بالإنكليزية ويمدّ لنا يده. هو رجل متوسط القامة، شعره أسود. يحاول بأسلوب محتشم تناسي صلعته وحواجبه وسوالفه الممتدة لتلتصق بشاربه. نظرة حكيمة. عرفت أنه كبير الجبهة. تكاد، ودون عائق، أن تصل إلى صدره. «أنا مهندس معماري عجوز» ويتثاءب «لا أدري هل سنحت لكم الفرصة للمرور بالفندق الكبير؟» يقاطعه بحماس كوند *بانيا غارسيا* «نعم سيدي المهندس المعماري إنه علامة معمارية فائقة في هذه المدينة الجميلة. هل ذلك من إنجازكم؟». يتوقّف لحظة لرشفة شمبانيا.

«تخيلت ذلك، نعم إنّه استلهام من روح النهضة الفرنسية». يقول ذلك بصوت منخفض خائف وكأنه ندم على تحويل الحديث إلى تحفته الفنية هذه. «الفندق تأسس سنة ١٨٧٤ وتمّ بناؤه في ظرف عامين فقط». «ألف مبروك» ردّ عليه، كوند دي *بانيا غارسيا*، وأنا لاحقاً لأنيّ، فقط بمساعدته هو، فهمت مغزى ذلك الحوار المثير. «ولكن بخصوص الكبر فليس لك من ذلك أيّ شيء أبداً». يضيف بلطف رئيس اللجنة الأولمبية البرتغالية متجاهلاً طيّة ظهر المهندس التي لا ترحم وزنه ولولا تلك العصا للامست الأرض. تقفز قهقهة عارمة. «إنّه ٧٩ شتاء سويديا. برد كثير وثلوج التهمت عظامي، وقد رسمت أيضاً، لو تعلمون، يا أصدقائي» هكذا صار ينادينا بأخوة. «بعض مراكز الصحّة مثل مستشفى *سيرافيم* هنا في استكهولم وهو ليس بعيداً عن الفندق الكبير». كوند *بانيا غارسيا* يواصل المسامرة التي تأخذ بعدا أعمق كلما تزايدت كؤوس الشمبانيا. يأكل قليلاً من الخبز مع جبنة وزيتونة والضيوف في أغلبهم يشربون النبيذ الأحمر والنساء يفضّلن الأبيض. بدأوا يودّعون منظّم الحفلة على أنغام الموسيقى. حركات الخدم بدأت تتباطأ. كؤوس بها قليلاً أو بعض القطرات ظلّت هنا وهناك في أركان القاعة الكبيرة التي بدأت تقلّ ناسها فالحفلة تسير إلى نهايتها. يصل دورنا فنشكر القبطان ونخرج. الأستاذة *حنّا* في انتظارنا في السيّارة.

«عفواً، الأستاذ جوهانسون، هل الأستاذة *حنّا* قريبة من هنا؟». يسأل، *أنطونيو* كرومب، أحد السائقين الذين رافقونا. «كانت هنا منذ نصف ساعة». يجيب دون أن يردّ على السؤال الذي خيّم على رؤوسنا. أشعر بالقلق، بالحيرة، بالتوتّر وحتى بالعصبيّة. أين تكون؟ اثنان، ثلاث، خمس دقائق مرّت «يا سادتي أنا هنا. جاهزون للانطلاق؟» تشير لنا الشقراء في حين كانت توقف سير السيارات الأخرى. هي مهمة ليست معقدة لأنه ليس منها الكثير في هذه المدينة. ولكن تعبير الحياة يعطيها قوة أكثر حين

ترى هذه المرأة دون شريك. «عفواً على التأخير، فقد كنت أتحدث مع مصفف سيارات دانماركي لطيف جداً، كان قد دعاني إلى كأس شمبانيا وذهبنا إلى هناك نتجوّل قرب ذلك الجزء من البحر». أنظر إلى خيوط الحذاء الذي كان عمّها قد أعارني إيّاه. أسوّي شاربي، يتصبّب العرق، أتنفّس بعمق. ما كان يمكنني أن أسمع هذا. لقد كان حلماً سيئاً.

-١٥-
خريطة الجيب

يهمس لي *أرمندو كورتزاو* بأنّه ظلّت نصف ساعة على حلول منتصف الليل. أنظر إلى السماء فلا أرى إلا نهاراً ونوراً واضحاً. ليس لي رغبة في النوم. أترك الجميع يدخلون المدرسة حيث تعوّدوا على النّوم وأتسلّل خطوة خطوة من هذا الباب الخشبي الكبير. أرى بعض الناس في لينغاتن. امرأة في منتصف العمر تتجوّل مع كلبيين وخلفها يمشي رجلان بشاربين وقبّعتين، يتبادلان تدخين سيجارة. البحر هو الحياة. أقترب من الماء وأتبع مجراه. أخرج من جيب بنطالي الخلفي ورقة صغيرة مطويّة وأخرج أيضاً خريطة كان السيّد المهندس المعماري قد رسمها لنا لنتعرّف على مكان الفندق الكبير. يقفز سؤال إلى رأسي، واقتراحان. أختار الأول وأثق في غريزتي. ففي النهاية أنا لم أته في سباقات تفوق الأربعين كيلومتر، فلن تثنيني بعض الأمتار هنا بعيداً عن المغامرة وتنفيذها. أشاهد واجهات المحلات، أشياء مذهّبة ثمينة، كلّها فريدة وأسعارها خيالية، كأنّها من كوكب آخر. الأرصفة السويدية مبلّطة بالجرانيت الوردي الغامق. يمرّ حصان بعربة ومقصورة تشبه تلك التي أنقشها في لشبونة. تنزل منها امرأة جميلة شعرها أسود وطويل. تلبس فستان أميرات. يفتح لها الخولي باب العمارة. تدخل وتنزع القبعة وحجاب الدانتيل النازل على وجهها الجميل، دون أن يخفيه تماما. تقفز وتحرّك شعرها وتنظر خلفها فتراني من الواجهة. أبتسم خجولاً أمام وجهها. لا أجرأ على تكرار الابتسامة فأرفع لها يدي وأواصل المشي. يمسك الخولي مقاليد الحصانين؛ واحد أسود الشعر والثاني كستني. ممشطان بأدقّ صورة. الحصان الأسود عليه سرج جلدي يصل

الذيل يضمن بقاءه نظيفاً حتى ولو عبر هذه الشوارع. يهمس بكلمات ويصرخ في وجهه بالسويدية فيطيعه الحصان فورا. العربة واقفة في الشارع الحجري. هناك فانوسان في الطريق يضيئان لها عبورها. سيختفون كلّهم في المدى؛ الخولي والحصانان، والنور، والسماء ستصبح أكثر صفاء. أنا الآن وحيداً متفرداً بنفسي. *لازارو* يمشي في هذا الشارع في شمال أوروبا في أعلى العالم، في قمّة الكون.

أصل إلى تقاطع كنت قد وضعت عليه علامة لتدلّني على الانعطاف يساراً. من الناحية الأخرى هناك حديقة كبيرة خضراء، عشب وأشجار وعصافير تزقزق. عاشقان يتبادلان القبل بحرارة. أنا أيضاً قبل أن أتعرّف على *صوفيا* كانت لي أيّام ومغامرات. مقعد الحديقة الخشبي هذا شاهد على حكايات كثيرة ووفاء عميق لقصص حب جميلة. سيدة بملامح آسيوية تحمل مظلّة شفّافة وأشياء آسيوية وحذاءً جميلاً من القماش الجيّد، وفستاناً أسوداً طويلاً، تنظر إلى الورود وتمسك بواحدة وتشمها. صفراء. كل لون له عطره وروحه الخاصة. أنا أحبّ اللون الأزرق وأحبّ الورود الزرقاء.

أربع نساء يمارسن الرياضة تحت شجرة، أغصانها وارفة وجذعها مناسب لتحمّل الأوراق والأغصان وظلها كبير. كلب صغير يحرّك ذيله فرحاً يريد أن يمازح البطّة. فرحة قطعها توبيخ صاحبه مربّيه في البيت وخارجه. أرى حركات إحمائية. إنّها صديقتي الفنلندية تتدرّب بعد تلك الحفلة البهيجة في السفينة «مرحباً زميلتي» أقولها بالبرتغالية وبعد ثوان يأتي صوتها «هالو فرنسيشكو». كم من كلمة لطيفة قيلت ولم أفهمها. وبعد أن أتجاوز مجرى المياه أنتبه إلى أن تلك النقطة هي نقطة الالتقاء مع بحيرة مالارن، ثالث أكبر بحيرة في السويد ويبلغ طولها ١٢٠ كيلومترا حسب ما قالت لي الأستاذة *حنّا* في مطعم المدرسة أوّل أمس لمّا التقيتها صدفة لحظة بحثي عن تفاحة، فإن لم تخني الذاكرة فإنّ نورستروم تحتلّ هذه المنطقة من المدينة التي تربطها ببحر البلطيق.

على يساري يقع مبنى عظيم لملوك وملكات الفندق الكبير المصمّم من طرف صديقنا المهندس المعماري. مربّع الشكل مهيب وسقفه الخارجي مطليّ بالأخضر ويتوسّطه علم السويد. في أركانه الأربعة أربع نوافذ. به أربعة طوابق بلون السلمون، سمك السويد. سيارتان واقفتان أمام الطابق الأرضي. أزواج يخرجون. نساء ناعمات ورجال يضعون قبّعات. أرى من بعيد حركات الداخلين والخارجين. هذه الليلة أبرد من سابقاتها. تسقط عصا عجوز لكن الخولي يأخذها بأدب ويرجعها إليه. عليه أن يقوم فقط بعملين؛ فتح الباب وإغلاقه. هو نبيه في معرفة لياقة التعامل. وفي الجانب الآخر يوجد قنال يصل القصر الملكي ويفتح على البحر وبه نوافذ لا تحصى.

لا تسمع الأصوات العالية هنا. رجلان يسرعان لالتقاط حقيبة يدويّة تقع من سيدة تغادر الفندق فيسقط منها الكثير، مرآة وجه، مواد تجميل كثيرة، فرشاتان أو ثلاث، كتاب، أشياء وأشياء، يا له من عالم في تلك الحقيبة. يتجادلان حول من يرجعها لها. لا ينقص هنا إلا *أرمندو كورتزاو* وساعته الجيبية ليقول لي كم الساعة ولكن تخميني لا يطول فساعة العودة للمدرسة قد حانت. تنشط ساقاي ويداي. أطوي الخريطة على أربع وأعيدها لجيبي الخلفي، فقد انتهى الجدال وعادت الحقيبة لصاحبتها الفاتنة. تحيّ برقّة الرجلان من عربتها، فموقف الأحصنة الى جانبي والقمر لم يغادر بعد السّماء ونوره الصافي مازال منتشراً. أجدني أمام مخبز بروائحه اللذيذة، فالتراموات مازالت إلى الآن نائمة والفوانيس بنورها المحتشم مازالت يقظة. شوارع واسعة أمشي فيها على راحتي فيوم السباق الكبير قرب وبدأ يحرّكني من الداخل. أتنفّس بثقة فأنا أملك كل المواصفات وسأفوز.

-١٦-
هذا فقط ما ينقصني

نمت قليلاً فقط هذه الليلة، فالاضطراب في داخلي لم يهدأ. أحلم بعيون مفتوحة بهذا السباق. أريد أن أحمل الميداليات للبرتغال. أبقى تحت الشراشف للحظات أتخيّل السباق، الانطلاق، الوصول، لحظات الاحتفال مع زملائي النائمين الآن. «صباح الخير أعزائي» يقول الدكتور، جوزيه بونتش، دافعاً الباب بقوة. «كما تعرفون *فبيريرا*، وفيتال، وكورايا يجرون اليوم في الملعب الفحوصات الطبية وأنتم الثلاثة عند العصر في الساعة الرابعة، لذا عليكم تجهيز كل الوثائق التي بحوزتكم وكونوا في الموعد المضبوط». أجبنا موافقين الأمين العام للجنة الأولمبية الوطنية ونحن مازلنا بالبيجامات، *فكورتزاو* وسترومب يلزمهما مسواك لتظل عيونهم مفتوحة وهذا أيضاً من إبداعات فنّ النجارة، المهنة التي أتقنها.

أمسك بقطعة خبز وموزة أثناء عبوري بمطعم المدرسة وأنقل خريطة الجيب من السروال إلى جيب التبّان الذي ألبس الآن. أقوم بالتدريب الصباحي في الشارع البحري. الشمس تعلو أكثر في السماء ولا سحب تظهر. أحيّ شجرتي وأواصل الجري على ضفاف البحر حيث تتقاطع سكك الترام وتتعانق بحيرة مالارم مع بحر البلطيق. أسرع الخطو، واثقاً من قدرتي مقتفياً الخط المسطر بالأزرق بحبر قلم المهندس المعماري الذهبي. أصل إلى علامة الصليب المقبل، إنّه مستشفى *سيرافيم* الذي صمّمه هو نفسه.

أجلس على مقعد في الحديقة بعد أن استأذنت من عجوز جالس هناك يمسك بيديه عصا ممدودة أمامه، يجلس في شكل مثلث كما

يفعل كل كبار السنّ عادة سواء في لشبونة أو استكهولم، ليس هناك فرق. في وسط هذه الأشجار المتناسقة يوجد فانوساً معدنياً أخضر يضيء نوره الزجاجي المحفوظ في مربع حديدي.

هناك بالقرب أرى امرأة تخرج مع طفل صغير من كشك تلفوني. تلبس تنّورة وفستاناً طويلاً. أمام مستشفى *سيرافيم* يحضرني اسم الأمر الملكي ل*سيرافيم*، أعلى وسام سويدي أنشئ سنة ١٧٤٨ من طرف جلالة الملك، فريديريكو *الأول*، الذي أمر فرسانه بالإشراف على المراكز الصحية والعقليّة لهذا البلد.

ثلاثة مبان بلون خافت، طويلة، الأعلى بينها هو بيت الصحة كما قال لي ساخراً الدكتور، جايم دوس سانطوس، يسمّى بيت المرضى هنا. مبنى رصين يبث الطمأنينة في كل من يحتاج شفاء. هو الأول في السويد كما أبلغنا المهندس المعماري، *أكسل كومليان*، وقد تمّ تأسيسه يوم ٣٠ تشرين أول/ أكتوبر ١٧٥٢ وشرع في العمل بثمان أسرّة واعتنى خاصة بفقراء استوكهولم. وبداية من سنة ١٧٥٤ شرع في حملة تبرّع سمحت بتوسعته ورفع طاقة استيعابه وتحسين جودة خدماته، وبعد ١٣ سنة من افتتاحه استقبل ٤٤ شخصا، وبعد ذلك بسنوات، وبعد صعود وهبوط، تجاوز المئة مريضاً خلال سنة ١٨٠٥. وقبيل نهاية القرن التاسع عشر فإنّ البلدية ومجلس استوكهولم البلدي اتّفقا على صيانة عميقة للمبنى فسلّمت المهمّة للسيّد، *أكسل*، الذي أتمّ تغيير وتجديد واجهته وداخله بين سنوات ١٨٨٩ و١٨٩٣. تحميه دائرة حديدية في طول إنسان ونصف في وسطه، دون أن تحجب رؤية الطريق، مداخن عديدة وسقف مائل ونوافذ كبيرة. بائع صحف شابّ يذكرني بصبيّ في بنفيكا كان يوقظني في بعض الآحاد، كان لطيفاً ذلك الصبيّ على الرغم من كدمات القصب التي تعرّض لها في طفولته كما يقال بتهكّم هناك في *صوبرال* دي مونت *أغراسو*.

أنظر متشوّقاً لغلاف الصفحة الأولى. إنّها صورة ملعب، يفخر به

السويديون، وفوق هذه الصورة الكبيرة دعاية الألعاب الأولمبية. صورة لحفلة الأمم. علم السويد في شكله الأول والعلم البرتغالي ظاهر بامتياز. أبتسم وهذا ما جعل الشابّ يعتقد أنيّ أريد أن أشتري الجريدة. «شكراً ولكني لا أفهم السويدية» وفجأة أشعر بقشعريرة فأوركسترا نحاسية تغزو الساحة. عشرات من الموسيقيين، نساء ورجال يلبسون الأزرق والأصفر والمايسترو يحرّك يديه بقوّة ناظراً للوحة موسيقية أمامه. حركات وألحان، عزف وإثارة، لحن يأتي من هناك، من العمق وآخر من هنا والألحان تتجمع وتطرب السامعين. أحببت دائماً إبداع المايسترو. يقود أوركسترا تعزف بامتياز وحركات مدروسة دون تردد، لا يعرفها إلا من خبر لحنها وحفظه عن ظهر قلب. ينضمّ إليهم زوجين وطفلين والعجوز الذي كان جالساً إلى جانبي في المقعد يعرج حتى يصل إلى الحلقة التي بدأت تتكوّن وتكبر. بائع الصحف يأخذ راحة ويتمتّع بالعرض. امرأة تلبس فستاناً أبيض وتضع قبعة بيضاء على رأسها تقترب هي أيضاً ثمّ يظهر فريق من الرياضيين، عرفت أنهم روس. كانوا يستمتعون بالموسيقى. ركاب الترام بدأوا أيضاً يتهافتون على العرض. هل يكون هذا تدريب على العرض الرسمي لافتتاح الألعاب الأولمبية؟. عند انتهاء العرض الأول تعالى التصفيق حتى بلغ صداه مستشفى *سيرافيم*، كان في النوافذ أطباء وممرضين، مرضى وباحثين، عائلات وزوار. بعد معزوفتين تتكرّر الأشياء نفسها، لا أحد يتزحزح من مكانه ويتزايد العازفين والألحان وتتكاثر ضيوف الصدفة الذين قادتهم أقدامهم دون معرفة سابقة لهذا العرض. تسمع صفارات إنذار من بعيد ويقوى صوتها كلّما اقتربت. كانت سيارة إسعاف.

الأوركسترا تقطع صوتها. يفتح باب المستشفى الحديدي ويجري نحو الباب موظفي الصحة فيحملون المريض على نقّالة. لم أستطع التثبّت من هويّته ولكن هذا لا يمنع من أن أنظر إلى السماء وأطلب له الشفاء، مثلما علّمتني أمي أن أكون في مثل هذه المناسبات. تطفئ سيارة الإسعاف

أضواءها الزرقاء ويهدأ صفيرها بعدما أنزلوا المريض ثم تغادر من نفس الباب الكبير ولكن ببطء هذه المرة كما لو أنها تريد الاستراحة بعد تعب جهيد من أجل إنقاذ حياة إنسان.

تواصل الأوركسترا العزف والساحة تغصّ بالناس والشمس ساطعة في السماء تحرق رقبتي. أغطّي رأسي بيديّ فأشعر بالغليان في شعري. كان عليّ أن آتي معي بقبّعتي من لشبونة. أشعر بأحد يفكّ رباط حذائي. كانت طفلة صغيرة شقراء أعجبتها تلك الخيوط الموسيقية فجاءت لحذائي لتقلّد بخيوطه ما طاب لها من عزف. تمسك بها أمّها بجديّة وصرامة كما لو أنّها في عمر الكبار وتبلغها أنّه لا يجب لمس أربطة الغرباء. أبتسم لها قائلاً «لا تقلقي ليس هناك مشكل» أدخل يدي في جيبي وأخرج منها أربطة كنت أحتفظ بها من تلك الأيام التي كنت فيها أجري خلف ترامات لشبونة وأهديها للبنت التي ابتسمت لي بسنّ واحد ظاهر في فمها وأمّها مازالت صارمة، ولكنها لم تقاوم دفء الموقف. «شكرا». «عفوا».

تصفيق طويل يكاد لا ينتهي، وشكر كبير يأتي من المايسترو، الذي وبكل تواضع، يقول أنّ الفضل يعود إلى ذوق الجمهور وتفاعله وإلى مجموعته الموسيقية المثابرة بكاملها لتحقيق هذه المتعة العابرة للحضور.

أسرع في اتجاه المدرسة. عليّ أن أتغدّى وأجهّز الوثائق اللازمة للفحص الطبّي، فأنا على اعتقاد تامّ بأنّي سأتفوّق على الجميع، إذ سأسند رجلي إلى ظهري وسيرون قدراتي، ولكن القانون هو القانون، وعليّ أن أستجيب لضوابطهم. «سيد *لازارو* هذا ما طلبت منّي، لقد وجدته» قالت الأستاذة *حنّا* وهي تدخل عليّ وحيداً في الغرفة. أشعر بقشعريرة. «شكرا جزيلاً السيدة *حنّا*» وأنسى للحظات المأساة التي سبّبها لي العامل الدانماركي. «هذا ما ينقصني، مرهم يحدّ من خروج السوائل من جسمي ويحافظ على قدراتي التنافسية». أشكرها على هذا المعروف تجاهي. أطلب منها أن

تحفظ السرّ فتردّ بحركة موافقة من شفتيها الحمراوين المكتنزتين. تنظر في عينيّ وتقبّل إصبعي. لا أدري ماذا أفعل، أرتعد، الباب نصف مفتوح وأصوات تسمع في المطبخ، أمسك رقبتها بيدي اليمنى وأقبلها على اليسار بالقرب من أذنها. رجفة متبادلة. نتكلّم بصمت، نتبادل كلمات لم تنبس، وعبارات لم توجد قط، نمسك بيدينا أمام جسدينا وتتوحّد أذهاننا، نقفز والباب مازال نصف مفتوح. يحلو لي غلقه. *صوفيا* لا تتركني. أفتحه ونخرج. أنسى الأوراق فأعود للغرفة وآمل في سرّي لو تلحق بي الأستاذة *حنّا* وتغلق الباب بالمفتاح وتقفز بشعرها الأشقر وتلصقني بالحائط، وتمزّق قميصي وتريدني فقط لها هي وتملكني في تلك اللحظة المحرمة ثمرة لذيذة. أشتهيها.

لم تأت. أجمع بطاقة الهويّة ووثائق أخرى جلبتها للمشاركة في الألعاب الأولمبية، كانت محفوظة في حقيبة من الورق المقوّى حماية لها من المطر والمياه المالحة التي عبرناها. أعيد الحقيبة تحت السرير وأخرج. الممر فارغ ولا أثر للأستاذة *حنّا*. أجدها في البهو تسوّي مكياجها بمرآة يد صغيرة. تسمع خطواتي فتغلقها وتعيدها للحقيبة الحمراء التي حملتها خصيصاً لهذا اليوم. حقيبة متناسقة مع لون الشفتين والحذاء. تواطؤ ألوان كامل فلم تنس أدق التفاصيل. كل شيء منظّم فهي سويدية وصارمة. «هيا سيد *لازارو*» واسألني «لنذهب، لنذهب سيدة *حنّا* لقد حانت الساعة أليس كذلك؟» تنظر إلى ساعتها اليدوية. «نعم إنّها الساعة الثالثة وعشرين دقيقة ظهراً مازال عندنا بعض الوقت ولكن علينا الحرص على عدم التأخر فالسادة الآخرين والكولونيل *ليندروث* قد وصلوا للسيارة «. السيد *أرمندو كورتزاو* لا تفارقه أبداً ساعته.

-١٧-
اختبار ناجح

نوجد في قاعة باردة المنظر تحت المدارج الحجرية لملعب استكهولم. جدران مزوقة بالزليج الأبيض، نقالتان، أجهزة تعقيم وبعض الأدوات التي لم أفهم صلوحيتها ولكن لا بدّ أن تكون ذات منفعة، طبيبان، رجل وامرأة من حين لآخر يناديان على الرياضيين المصطفين للتثبّت من وثائقهم للمصادقة عليها فهي المفتاح الأخير لدخولهم لأحلام الألعاب، بعد شهور وسنوات من التدريب والجهد والصبر نشدانا للّياقة البدنية وطموحاً لتصير المهارات أكبر.

«فرنـسيش. كو. لا ـزا ـرو» هكذا نادوا على اسمي بنبرة غريبة عند قراءة اللقب، وكان قد رافقني للترجمة الدكتور جوزيه بونتش. أنزع القميص والتبّان وأبقى فقط في الملابس الداخلية. أجلس على نقالة خشبية بيضاء وأتمدّد. يسألني الطبيب وأجيب على كل شيء أعرفه. «٣٢، نعم، لا، لا يؤلمني، أشعر، لا يؤلم». القلب، الرئة، الأربية. فحص دقيق. طبيب أصلع ونبيه قويّ وطويل وبطنه مصقول يلبس ميدعة بيضاء. أشعر بالتوتر في انتظار ذلك الفحص الروتيني. يقول لي الدكتور، جوزيه بونتش، بإيماءة من رأسه أنّ كل شيء على ما يرام وأنّي اجتزت الاختبار بسلام. طيب، هذا ليس مفاجأة لي ولكنه شوّش عليّ قليلا. يخطّ الطبيب الشهادة. زملائي كانوا قد تجاوزوا هذه المرحلة. هم هناك متكئين على السيارة يتحدثون مع الدكتورة *حنّا* التي بانضباطها المعروف ستعلمنا بالخطوة التالية.

« هل تريدون أن نذهب إلى مقهى في ستوربلان لنتناول شيئاً ما؟». نقبل دون تردّد باقتراحها اللطيف. نجلس على كراس حديدية وطاولات خشبية. إنّه مقهى صيفي. كثيرا من الناس هنا يستغلون الطقس الجيّد ليستمتعوا به، نساء ورجالاً وأصدقاء وعائلات. سحابة تمرّ، تحسد الشمس التي أهدت لها مكانها. هناك ورود كنت أريد أن أقطف منها واحدة للدكتورة *حنّا*. جيدها كان مركز اهتمام كل البعثة الذين تظاهروا أنّ لا شيء يلفت انتباههم سوى روح المحادثة وجمال المناظر الطبيعية في هذا المكان أو طيب رائحة الشاي لا أكثر.

«إذن كلّكم جاهزون للألعاب، أليس كذلك؟» يجيبها الدكتور جوزيه بونتش «نعم، سيدتي، هذا واجب انتهينا منه، وهو ضروري، ولكنّه ليس كافيا لنشعر أننا حقّقنا ما نريد. ما ينقصنا الآن فعلاً هو بداية المسابقات». أحتاج إلى أن أذهب إلى الحمام. كان أمامي شخصان. ليس هناك أيّة علامة في الخارج تحدّد جنس مستعملي الحمام. عادة هناك علامة للنساء وأخرى للرجال. لا يهمّ. تظهر سحابة مجدداً وتستمرّ لعبة الظهور والتخفّي بينها وبين الشّمس. إنّها لعبة الصيف في سماء استوكهولم. أمامي شابّ شعره أشقر، قصير يتصفّح جريدة ويتوقّف في صفحة الإعلانات. يذهب باحثاً عن ورقة وقلم ويعود لمكانه في الطابور الذي مازال على حاله كما تركه دون تغيير في العدد. يسجّل رقم هاتف. أتخيّل أنّه يبحث عن إقامة في فندق أو بنسيون ويترك البيوت الخاصّة كآخر حلّ ممكن. يصل دوره بعدي بالضبط. أقوم بما يجب فعله فأغسل يديّ بصابون برائحة الخزامى وأنشفهما. أنظر في المرآة، مازال قليلاً من الماء على شعري وحول رقبتي. أسوّي شاربي وأمرّر يدي على شعري. أعود إلى زملائي. تصطدم بي امرأة شاردة كانت تمشي وتسأل زوجها ماذا يريد أن يتناول، اعتذارات متبادلة من طرفنا. أطلب عصير تفاح وزملائي عصائر برتقال البرتغال،

وقهوة للدكتور، جوزيه بونتش، وقارورة ماء معدني للكولينيل *ليندروث* وسلطة خيار للأستاذة *حنّا* التي بحكم المشاغل الإدارية في المدرسة لم تجد وقتا لتتغدى. «الأستاذة *حنّا* ألا تريدين أن تأكلي شيئاً آخر، صحن سمك مثلا، أو لحم، وفاكهة على الأقل كتحلية؟». يسأل الدكتور، جوزيه بونتش، وكأنّه ساخط من حمية الجميلة السويدية. «شكراً جزيلاً، دكتور، ولكن ليس من عادتي الأكل كثيراً وخاصة عندما أظلّ لساعات طويلة في الخارج، مثلما هو الحال اليوم، ولكن قبل النوم آكل دائماً خبزاً مع جبنة وتفاحة خضراء». كان رداً أربك الجميع وإن استفزهم حسن مظهرها. «هذا الحليب بارد قليلاً، هل من الإحراج لو طلبنا تسخينه قليلاً؟». الأستاذة *حنّا* تأكل بسرعة قطعة خيار وتقول: «تريد حليباً ساخناً؟». أبحث عن توضيح. «نعم. إن أمكن، ولكن لا داعي لإحراجك، أنا بنفسي سأذهب لأنادي على النادل». تقوم الأستاذة *حنّا* وتسأل كم عليها أن تدفع مقابل السلطة». «أنت ضيفتنا لا تهتمي للأمر» يقول الدكتور، جوزيه بونتش، فيأتيه شكراً مفاجئاً وليّنا «هذا ليس ضروري سيدي». «الشرف لنا، أستاذة، هذا لا يساوي شيئاً أمام مجهودك الكبير مع البعثة البرتغالية وقد جلبنا معنا لك هدية بسيطة للذكرى وأيضاً للكولونيل، *ليندروث*، وأتمنى أن تقبلا منّا نبيذ بورتو». «السيد الدكتور لطيف جداً، ما فعلنا إلا واجبنا وقد قمنا به بسعادة» قالت وكأنها تظن أنّها تستطيع أن تبرّر بكلمات بسيطة مجهود عظيم قامت به لصالحنا. «نعم دكتورة، من جهة هو واجب، ولكن نحن لا ننسى الجانب الآخر وهو العلاقات الطيبة بين البرتغال والسويد المستمرة والأصيلة حتّى ولو أتينا بكل عنب منطقة *الدورو* وقدمناه لكم. ولكن يسرنا فعلاً أن نهدي لكما هذا النبيذ المقدس المشهور في كل بقاع الدنيا».

وجه الأستاذة *حنّا* المدوّر يشتدّ وجلدها المخملي يهزّه وقع اللحظة. تغلق يديها وتضمّهما إلى صدرها وبعينين دافئتين تقول. «شكراً لكم

جميعاً، لا أعرف ماذا أقول». «لا تقولي شيئاً» يردّ الدكتور، جوزيه بونتش، مأخوذاً بانفعال اللحظة. «ليس ضرورياً أن تقولي شيئا». الكولونيل *ليندروث* يعاني هذه الأيّام من أوجاع مؤلمة بسبب ذبحة صدرية لذا تكلّم قليلاً وقام بمجهود كبير لمرافقتنا، واضعاً ذراعاً على كتفي والثاني على كتف *أرمندو كورتزاو*. إنّها وحدة بلدين متباعدين والرياضة تجمعهما الآن تشاركا في الروح الأولمبية.

-١٨-
شكوك

يستعدّ زملائي في الغرفة للنوم. خزانة حائطية بلا أبواب. عدد من المشاجب، بعضها من خشب وبعضها من حديد وعليها نعلّق الملابس. زملائي يتحدّثون عن الفحص الطبّي لهذا اليوم ويتخيّلون ماذا سيحصل لو أنّ أحداً سقط في الاختبار. أخرج وأغلق باب الغرفة دون أن يفهم أحدهم شيئا. أتجوّل في المدرسة. أذهب إلى الجناح الآخر. نور الليل يكشف الممشى فلا داعي لإحراج أحد. أطرق الباب. كان من المفروض أن يأتي السؤال «من؟» يأتي هكذا بصوت أنثويّ متعب من إرهاق اليوم. أدفع الباب وأدخل بحذر شديد. «هذا أنا فرنسيشكو، أستاذة *حنّا* جئتك بخبز وتفاحة خضراء».

١٣ تموز/ يوليو ١٩١٢، لم يبق سوى يوم على مارثون حياتي. أشعر أنّي قوي وأنّي أعظم رجل في العالم وتحت قدميّ يتوارى الجرانيت. فأنا أجدر من الآخرين. مررت بحالات ممتازة في البرتغال حيث صعدت ونزلت هضاباً وهذه المدينة المنبسطة ستجعلني أطير نحو نقطة الوصول. أنظر ورائي فأرى بقية المنافسين وأمامي ليس سوى اليافطة الحمراء تضرب صدري لأقصّها، قمّة المجد وعلم البرتغال يرفرف عالياً في يدي. الآن سأجري بعض الكيلومترات وسأتدرّب قبيل المنافسة. باحة المدرسة وكأنها تشتعل والكل نيام. أتكئ على الشجرة وأحرّك فقط رجلي وذراعي، فأنا عندي فقط قارورة صغيرة من المرهم وغداً السباق الكبير. صحيح أنّ رائحته لا تعادل العطور الفرنسية، ولكنه على أية حال سيساعدني. أغلق القارورة الزجاجية وأعود للغرفة. أضعها في حقيبتي ملفوفة في قميص ومحفوظة

لليوم الكبير. أقطع المسافة التي صارت من عاداتي، شارع واسع. أشجار تلو الأخرى، ثلاثة صفوف على اليمين واليسار. أتخيّل منعرجات المارثون. أمام الفندق الكبير أرى عداءتين بملابس الرياضة سعيدتين، على صدريهما ميداليتين واحدة فضية وأخرى برنزية، كانا قد فازتا بهما أمس أما أنا فأريد أن أصير كذلك ولكن لأفوز بالذهبية ولا شيء غيرها، فأنا أستحقها والبرتغال أيضاً. أتبع نظام في الجري منضبط قاطعاً شوارع استوكهولم. المرهم بدأ يتبخّر. أطفال رفقة آبائهم ينظرون إليّ. العرق يتصبّب. حرارة في الجسم وبرد في الرّوح، لن أتوقّف إلا عند نقطة الوصول. سرب من البطّ يسبح بجانب القصر الملكي، ونوارس تنظر بانتباه إلى الماء ولا تنزل إلا بعد أن تلمح سمكاً صغيراً فتخطفه. أسماك ولدت هنا وترغب في دخول البحر المالح، ولكن سنّة الطبيعة منعتها. هذا دليل آخر على أنه يجب عيش الحياة لآخر لحظة ولا نترك شيئا دون تجريبه وتدبّره. أنا اليوم الأفضل فلأنّ اللحظة الحقيقية مواتية فالغد لا يوجد أبداً.

أجلس على حافة صخرة لأريح رجليّ وأهدّئ روحي وأضاعف حماسي. أنظر للمدينة والجزر والجسور، إلى الجميلة استوكهولم. أنظر إلى التوقيت في ساعة الكنيسة خلفي إنّها الساعة الثانية عشر والرّبع ظهرا. تصعد إلى السماء أصوات أجراس حزينة توحي بالآلام. يعزفون بكل ما يملكون من طاقة، فقد مات أحد فرسان تنظيم *سيرافيم*. أجراس كنيسة، ريدارهولم، تبكي. هي تقريباً الملجأ الأخير لكل ملوك السويد وهي في الأصل دير يعود للقرون الوسطى، بالضبط إلى القرن الثالث عشر، كنيسة بروتستنتية منذ عهد جلالة الملك، غوستافو الثاني، إلى يومنا هذا باستثناء الملكة، *كريستينا*، التي اعتنقت الكاثوليكية وتنام روحها في الفاتيكان. يرقد في سلام في هذه الكنيسة، أيضا، ملوك من القرون الوسطى: *ماغنوس* ولادولاس وكارل كنوستون بوند. كم هي موسوعة معرفية الأستاذة *حنّا* حتى أني صرت أخاف منها.

أرى حجراً بجانبي. أمسكه وأضغط عليه بيدي وأنقله من يد لأخرى وأمرّره على رأسي، فظهري فبين فخذي ورأسي. أفكّر في *صوفيا* وأشعر بغيابها وأشتهي الأستاذة *حنّا*. الفوز في المارثون سيساعدني على تجاوز كل شيء. لا بد أن يكون ذلك، فأنا رجل صاحب كلمة قبل كل شيء. قارب يبحر وأشرعه تتمايل وعليه ناس تمسك بكؤوس شمبانيا كريستالية يحتفلون بشيء ما، فربمّا الصيف فعل فيهم فعلة ما، صداقة مشتركة وفرحة عامة. يقدمون ورود لآنسة ويحملونها على أعناقهم هاتفين والقبطان يمسك بحبل ويقرع الأجراس. بحاران في حضنهما رضيع، والمرأة قبل أن تنظر إلى السماء تقبّل رضيعاً أو رضيعة ثمّ ينضمّ لهما رجل. إنّه الأب. القبطان يسحب الجرس من مكانه ويملأه بالماء المعمّد ويمرّره على رأس الرضيع. القارب قريب منّي تماما. ابتسامات وتصفيق ودموع. ما أقرب الموت من الحياة، أجراس تقرع نفس الصوت. يخرج الجميع بحذر على خشبة صغيرة كان أحد البحارة قد وضعها لتصل القارب بالمرسى. والرجل الآخر يربط الحبل في أحد الأغلال الحديدية. النّساء يخرجن على مهل بمساعدة الفتيان والقبطان ينهمك مبتسماً بجمع الشّموع. يشرب على مهل كأس الشمبانيا. هو كهل بدين صاحب لحية طويلة بيضاء. يتمايل دون أن يسقط وهو يحمل الشموع تحت ذراعه. ينزع القبّعة ويحكّ رأسه. جلده يظهر محروقاً من الشمس والملح. يختفي سريعاً عن الأنظار. ابني أو ابنتي يمكن تعميده هكذا في *أستورياس*. سأسأل *صوفيا* رأيها في هذا الموضوع. كما يمكن أن نستشير القبطان، كوند *بانيا غارسيا*، فمن الأكيد أنّه سيرحّب بالفكرة، وإن كانت السفينة بعدها راسية في لشبونة، فسيكون ذلك رائعاً حيث سيعمّد ابني في السفينة نفسها التي حملت أبيه إلى المجد ورفعته في سماء استوكهولم. سأستدعي كل عائلة صوفيا، وعائلتي، والبعثة البرتغالية للألعاب الأولمبية، ووزير البرتغال في السويد، *أنطونيو فيجاو*، ليلقي خطاباً جميلاً وشاعريّاً، نهر *التاج* من جهة ومن جهة أخرى، براسا

دي كوميرسيو، والأستاذة *حنّا*، والقبطان *ليندروث*، سيزوران بلدنا الجميل ومدير الملعب أيضا. سأستدعي أيضاً زملائي السابقين في الأندية التي انتميت إليها والسيد، أنطونيو، صاحب محلّ الأزرار، وجيراننا في محل السيارات في شارع، *فيايش دي داوش*، والسيدة *غلوريا*، والسيدة ماريا، والسيد ليوناردو، والجدة روزا، هكذا كنت أناديها بحنان إذ كانت تعتني بي يومي الثلاثاء والخميس دون تأخير وتطعمني الخبز الساخن الخارج لتوّه من الفرن. كان ابنها يأتيها بطحين الذرة الذي كان يطحنه في أنكورا في شمال البرتغال حيث كان يعيش والد جدّه. رحل وترك له كثيراً من الحقول الخصبة. دون أن أنسى السيد *ألبينو* الذي لم يترك مؤخرة تمرّ في الشارع دون أن يتابعها بعينيه، رغم السبعين سنة من عمره، وغاستاوزينيو الساكن في البيت الواقع أمامنا والذي أصبح في سنّ السابعة يتقن فنّ لعبة البيرلند ولا يمكن، طبعاً، أن أنسى السيد بينييرو مزوّد الخشب الذي كان مرة كل أسبوعين يوقف شاحنته أمام المحلّ ويساعده أربعة رجال أقوياء مفتولي العضلات، يلبسون قمصان نصف كمّ وينزلون بسرعة جذوع الأشجار التي ستصبح، فيما بعد، عجلات للعربات.

ينزل المطر فيلجأ بعض الناس تحت العمارات وكشك جرائد يحمي بعضهم. أقوم وأمسح العرق والماء على وجهي بيدي اليمنى وأواصل أماماً نحو القصر الملكي. هناك غطاء يحجب أشغال بناء ربمّا لتجديد المبنى أو إصلاحه وبجانبي بالضّبط محرّك سيارة يهدر. أتكئ على جدار قريب. أشعر بألم في الكاعب فأتحسسه قلقاً. أمسده وأعتني به. أتنفّس وأستعيد معنوياتي وأترك القلق، فأنا بخير وسأفوز. أقوم وأواصل. جسر تحته ماء حلو آت من بحيرة مالارن. أقف في آخرها. جهة بها ماء بارد أسود وأخرى مليئة بالعلق في أسفلها تحاول المياه طردها لبحر البلطيق. على الضفاف صيّاد سمك يضع على رأسه قبّعة بنيّة ومعطف أخضر. يجلس على مقعد صغير جلبه من منزله. يشاهد الدوائر في الماء تتكوّن بعد

كل قطرة تنزل، هندسة الطبيعة. يسحب خيط الصنّارة ويضع فيه طعماً جديداً أخرجه من المعطف. بجانبه صندوق خشبيّ يخرج منه سيجارة ثمّ يلقي الصنّارة بطعمها منتظراً ومرتقباً خداع سمكة ما لتقع فيه، فاليوم لون الماء بنيّ وهذا سيجعل الأسماك منتبهة أكثر. ينهض متفاجأ فالصنارة تتحرّك. يجذبها من ذيلها. إنها سمكة بطول عشرين سنتيمتر وقعت في الفخّ. تنتفض، تضطرب على الأرض، تتألّم. الرجل الآن أكثر اطمئنانا. يفتح جرجور من المقعد حيث يجلس ويخرج منه منديلاً ويمسك بالسمكة، يخرج من فمها الطعم بعناية، ينفض عنها التراب، ويسمح دمائها ثمّ يرميها في الماء. قبل أن تصل تقفز في الهواء وتشكر الحياة على عودتها لها. كانت فاجعة لا غير وستعود للعيش رفقة فصيلتها. الصيّاد صاحب المعطف الأخضر يثني المنديل ويرتّبه باهتمام ويعيده للجارور الصغير. ينظّف رأس الصنارة ويضع الطعم في ورقة جريدة ويلفّ الخيط حول قصبة الخيزران ويضعه تحت ذراعه. ينظر وراءه مرة أخرى، ينسى ورقة الجريدة. يقصدها وعندما يدركها تخطفها الرياح وتوصلها قربي. أضع عليها قدمي، أمسكها وأطويها وأعطيها إيّاه. يبتسم لي من تحت شاربه المصفرّ من التدخين «تاك». «دي نادا» ونواصل طرقنا، فهذا الرجل ربّما يعود إلى بيته. هناك سمك اصطيد، وسمك أرجع إلى البحر، وأنا أعود إلى المدرسة. أريد أن آكل فاكهة قبل النوم والراحة. غدا، غدا. أعيد ذلك من رأسي حتى قدميّ.

-١٩-
منافسات ودية بين الأمم

أرمي خلفي الغطاء فاراً من النوم الذي لم يستطع الإمساك بي. يا له من حرّ في هذه الغرفة. أفتح النافذة، إنّه منتصف الليل وكأننا في الظهيرة. ضجّة صغيرة بحدثها تحريك النافذة. القمر يلوح في الأفق ويدخل الهواء حاراً، هو أيضاً. زملائي نائمون، ساعة يشخرون وساعة يغرقون في نوم ثابت معتدل. تمرّ الساعات والنوم يجافيني. أنا متوتّر بسبب السّباق، فلقد انتظرت طويلاً هذا اليوم. أجدني بجانب السرير أضع رأسي بين رجليّ ويداي تمسكان بشعري من الخلف. أعرف أنّه لحظة إطلاق ضربة البداية سأكون واثقاً من نفسي وقوياً وزملائي سيقفون هناك بعيدين، على الحافة، ليشجعوني وسيساندهم الكثير من المتفرجين. الجميع سيكون إلى جانبي فكلّنا برتغاليين وعندما أضرب شارة الوصول بصدري سأطير في السماء. أنتعل خفّي المدرسة وآخذ منشفة بيضاء وأقصد الممرّ لأرى صور اليوم الأول. أتخيّل كيف سيكون المشهد بعد سنين طويلة لمّا أقصّه على أحفادي. سأكون أتعكّز على عصا طولها ستين سنتيمتراً وأسرح في ذكريات أزمنة خلت.

أبدأ في تجهيز نفسي. أضع في كيس من قماش وجدته قارورة المرهم المعدّ لامتصاص العرق وجوربين نظيفين من صوفيا، حبيبتي، لاستعملهما بعد السباق الكبير وقميص ممتاز مكويّ بطريقة جميلة. أفحص بدقّة حذاء المسابقة الذي سيجمعني بالأرض ويطير بي في السماء كما حدث لي سابقاً في العديد من الانتصارات في لشبونة. آخذ التبان الموجود فوق سخان الماء القريب من النافذة. ينادوننا باكرا للفطور. أتناول كوب حليب

وفاكهة وبعد ساعتين آكل موزتين. في تمام الساعة العاشرة صباحاً نكون حول الطاولة مجددا، وليس من عادة السويديين الغداء في أيام العمل. بقيت ثلاث ساعات وخمس وأربعين دقيقة.

رئيس البعثة الأولمبية البرتغالية الدكتور، *جايم موبارين دوس سانتوس*، يقوم. الكرسيّ من خشب الصنوبر يقع على البلاط الفسيفسائي. يسوّي بإصبعه المعطف ويقف ممتلئاً بهيبة اللحظة، يثني قبعته ويقول. «أشكر جزيلاً السلطات السويدية». *وأرمندو كورتزاو* كما عودنا دائماً يترجم لنا الخطابات إلى البرتغالية. «إلى المسؤولين على تنظيم الألعاب الأولمبية». الممثلين في شخص الكونيل *ليندروث* «إلى مديرة المدرسة، والأستاذة *حنّا*، اعتراف كبير بمجهودهما الجبار وعنايتهما الفائقة بمواطنينا البرتغاليين خلال إقامتهم في السويد». رسالة وعد فيها، وخلال مرتين، قائلاً «لا أتعب من تكرار إصراري على شكر اللجنة المنظمة التي أشرفت على هذه التظاهرة الرائعة». تبادل للنظرات، ابتسامات وانفعالات، «شكرا» متبادلاً بخجل، ولكن، أحسسنا بأنّ أجوبة المنظم والمسؤول عن رحلتنا قد اختلجت نفوسنا فلم تستطيع تحمّل أثر كلماته.

وبمجرد أن انتهينا من ذلك، بعد مرور ٤٥ أو ٥٠ دقيقة نذهب إلى بهو مدرسة *هيدفيغ إلينورا*. الجو يشتعل والشمس حارّة جداً. نجلس أنا وكوند *بانيا غارسيا* في مقعد خشبي تحت شجرة تظلل أطفال المدرسة من حرّ الشمس وتحميهم من قطرات مطر الشتاء. «فرنسيشكو» تقولها بصوت جدّي وحازم واضعة يدها على كتفي الأيمن. «اليوم هو يومك ويومنا الكبير، نحن جميعاً هنا معك ومعك الكثير هناك في البرتغال، لا أريد أن أضغط عليك زيادة ولكن يجب أن تعرف وتتأكد وتثق، ولا تشك لحظة واحدة، في أننا إلى جانبك لنوفّر لك كل ما تحتاج». وتكمل واعدة. «عوّل علينا». رجل هش أحسّني. أتنفّس من الأعماق. أنظر للأستاذة *حنّا* وأعود لكوند *بانيا غارسيا*. «شكراً جزيلاً سيدي الكوند، شكراً جزيلاً

للجميع، أعرف أنّكم معي». يخرج صوتاً لتغيير حالة اللحظة. «والآن عليك أن تسترخي قليلاً أيها الشاب وتنسى الأمر للحظات».

ويبدأ يروي للأستاذة *حنّا*. «هل تعرفين، أستاذة، أنّه لا يمكن أن يمحى من ذاكرتي يوم ٦ تموز/ يوليو ١٩١٢ الماضي الذي نالني فيه الشرف العظيم لأحضر شرف افتتاح الألعاب الأولمبية باستوكهولم والتي دشّنت انطلاق أسبوع الألعاب الأولمبية. شعرت بقشعريرة وصدى الفرحة يصل أركان المدينة كلّها والشمس أشرقت وعلت في السماء بصورة غير متوقعة، وآلاف الأعلام مالت مع اتجاهات الريح، حفلة الأمم، ابتسامات، قبّعات تعلو، أحضان أخوّة». وبابتسامة متقطعة على الطريقة البرتغالية «نعم، حضرة الكوند، هذه الألعاب مهمّة جداً لنا نحن السويديون». يشير موافقا برأسه ويواصل. «في تمام العاشرة وأربعين دقيقة من صباح اليوم، وهي بالضبط الساعة المحددة في البرنامج الرّسمي، خرج الموكب الملكي من القصر ومرّ بين الجماهير الغفيرة التي حيّت جلالة الملك، غوستافو الخامس، راعي الألعاب الأولمبية باستوكهولم لسنة ١٩١٢ وجلالة الملكة ووليّ العهد الأمير، *غوستافو أدولفو*، الرئيس الفخري للجنة الأولمبية السويدية لألعاب استوكهولم الأولمبية ١٩١٢ وأفراد آخرون من العائلة المالكة».

تمّ الاستقبال في ملعب ملآن بالجماهير تعلوه الهتافات والحماس، جماهير جاءت تتقاطر من الساحة الملكية الجديدة والمتغيرة منذ سنوات. حاجز خشبي أخضر داكن مزدوج الغلاف قائم بين المدارج وبين أرض الملعب حيث المسابقات المقامة على خطوط سجادية حمراء. أكثر من ثلاثة آلاف بين مشاركين ومشرفين. كانوا قبل اليوم قد اجتمعوا وقوفاً في المركب الرياضي *بأوسترمالم*.

ويتواصل العرض دون استراحة. «يتجمّع المشاركون حسب علم البلد، في صفوف أربعة في الأمام، في اتّجاه المنصّة الشرفية حيث تجلس العائلة

المالكة لهذا البلد الصديق. أولا، أعضاء البعثات الوطنية وخلفها الفرق المشاركة. ويتقدّمون حسب الترتيب الألفبائي في اللغة السويدية وقد أوصي كمجاملة بترك فريق البلد المنظّم ليكون المشارك الأخير. في الأمام سيكون الأكفّاء وفي حالتنا نحن سيكون الرائع فرنسيشكو». ويضربني بصفعة قوية على ظهري تدفعني بعض السنتيمترات إلى الأمام. «ادخلوا الملعب من الجهة الشمالية الشرقية ثم تابعوا على الجانب الأيسر من مسار السباق حتى تصلوا وسط الملعب، البلجيكيون في الأمام و بعدهم الشيليون فالدنماركيون و هكذا و نحن بين النرويج و روسيا أمّا في النهاية فكما قلت لكم، السويد. ووفاء لعادة قديمة، والأستاذة *حنّا* تعرفها جيداً، يسمع النشيد الوطني للبلد المنظم مردّداً من كل السويديين الحاضرين هنا، وهي عبارات كتلك التي كان جنودكم يرددونها قبل الذهاب إلى الحرب. ربّنا هو قلعتنا ودرعنا وسيفنا ورمز ثقتنا. كم حاصرنا من عدوّ وكم مآسي صادفتنا وتخطيناها فأملنا دائماً في الربّ.. صلاة باللغة السويدية تتوجّه إلى جلالة الملك يقوم بها رئيس قساوسة البلاط الملكي القسّ، كليمنس أهفيلد «كثيراً من الأمم والشعوب والأعراق تتكلم بلغات مختلفة ولكنها في النهاية شعب واحد» وواصل الصلاة بالإنكليزية القس لافان. كم هو جميل أن نسمع ونشعر ونتابع هذه اللحظات على بعد خطوة أمام جلالة وليّ العهد الأمير *غوستافو أدولفو*.

ويردف «الثقافة البدنية التي كانت لها قديماً درجة عالية من الاحترام عادت اليوم من جديد لتحلّ مكانة متقدّمة في حياة الشعوب ولذا وجب تحيتها ودعمها باهتمام ملكي وعام». المشرف كان قد أوصى جلالة الملك في بيانه بذكر هذه الخصائل عند إعلان انطلاق الألعاب الأولمبية بإستكهولم.

وقفة ونظرة مفاجأة إلى رأس الشجرة، والتي منها طار منها عصفور

وتوجّه إلى سطح المدرسة حيث كان يزقزق في الأيام الماضية. يسترجع أنفاسه ويواصل حديثة أمام التركيز الهامّ للأستاذة *حنّا* التي قد تكون تتخيّل مثلي أنا كيف سيكون هذا الحدث بهيجاً ورائعا. «إنّه لشرف كبير للسويد أن تكون استوكهولم قد اختيرت لتنظيم الدورة الخامسة للألعاب الأولمبية» يقول جلالة الملك مرحباً بالضيوف «لهذه المنافسات الودية بين الأمم والرياضيين وأحبّاء الرياضة».

تضع الأستاذة *حنّا* يدها اليمنى على فمها وتسعل كسيّدة رقيقة وتعلّق «نعم إنّ الصداقة شيء مهمّ، أليس كذلك؟». «ممّا لا شك فيه». وتحية إلى الملك تدخل ساحة ميدان الملعب الجمعية السويدية للجوقات معطية إشارة البداية لاستعراض الأمم. تمشي أمام المنصة الملكية على صوت ألحان الألعاب الأولمبية التي أعدها *ألكسندرسون* الذي فاز بالمسابقة التي أقيمت بمناسبة هذا الحدث. الألحان الأخيرة صداها يبلغ كافة أرجاء الملعب فتتسلل بين المدارج وتدخل النفوس ثم يبدأ عرض جمباز بقيادة مجموعات من الرياضيين السويديين رجالاً ونساء يذهلون عيوننا وحواسنا».

-٢٠-
ألعاب أولمبية مختلفة

يقول لي الكولونيل، *ليندروث*، أنّه شفي من الذبحة الصدرية العاصفة التي حلّت به ولم تعطه هدنة رغم المجهودات المبذولة لإحباط رغبتها، «ولحسن الحظ لم تحطّ من عزيمتي» يقول بابتسامة عسكرية ويردّ بشكل حازم وجازم. «شكراً جزيلاً على اهتمامك سيد الكوند، فلقد رحلت تلك الذبحة عنّي هذه الليلة وأعطت السلام لحنجرتي والآن يمكنني التحدّث براحة. سأتناول علكة الأوكالوبتس التي نصحني بها الدكتور، *فرياس*، جاري هنا في أوسارمالم وهو من أكبر الأطباء الحاضرين اليوم في الألعاب الأولمبية لمعاينة المشاركين في المارثون. هنا في السويد نحن فرحين بالطريقة التي تسير بها الألعاب» قاطعه كوند *بانيا غارسيا*. «سعادة كلنا نشترك فيها ونحسّها. أنتم فعلاً تستحقونها».

«شكراً جزيلاً، سيدي الكوند، فكما تعرفون هذه الألعاب عندها بعض الخصوصيات لم تكشف جميعها حتى الآن وأذكر، على سبيل الذكر فقط، أنّ أعضاء اللجنة الأولمبية السويدية بقيادة الكولونيل، *بلاك*، هم المسؤولون على تمويل كامل الحدث، لكن لحسن الحظ، فالحسابات تقريباً خرجت متساوية وأنّ عائدات الألعاب دفعت مستحقات التحضيرات لها علاوة على حسن تمثيلها لصورة مدينتنا وبلدنا في الخارج». «لا أشك في ذلك سيدي الكولونيل والأستاذة *حنّا*». «واستقبلنا البرتغال للمرة الأولى في أحد أولمبياد العصور الحديثة وهذا سيكون علامة جيدة على حسن علاقات الصداقة بين البلدين» ويواصل الكولونيل *ليندروث* «ويعمقها أيضاً الجانب

الفنّي البديع، هندسة معمارية، نحت، رسم، موسيقى وأدب وهذا ما أسره لكم». العيون والآذان موجهة للكولونيل. «الفائز في المجال الأدبي كان، باراو دي كوبرتين، بقصيدة مخصوصة للرياضة مكتوبة على غلاف به مخلوقات أدبية ألمانية هي هرود واكسباخ». ضحكة عارمة عن الصدفة السعيدة التي كشفت الغاية من بعث هذه الألعاب.

«أما بالنسبة للفريق الروماني للجمباز وقد أعددنا له مقرّ الإقامة في نورا ريالوفركارت فلم يصل بعد. وافتتحنا العدّ الإلكتروني في هذه المسابقات وخاصة المتعلقة برياضة العدو، فالسيد *لازارو* عليه أن يكون أسرع من الثواني» أمنية ورغبة هما بالضبط ما أريد. «هل تعرفون يا أصدقائي البرتغاليين أنّه عندنا انتظارات كبيرة من الرياضيين السويدين المشاركين فهم في بيتهم وعلى أرضهم ولذلك...» يبتسم ويواصل تقرّر تطبيق وضعية مبتكرة بخصوص لعبة الحبال. وبفضول علق، كوند *بانيا غارسيا*، «وما معنى هذه المسابقة، سيّد الكولونيل، أتقصد أنّ فريقين من الرجال، كل من جهة، يمسكان بالحبل وينتظرون من يستسلم الأول؟». «هذا هو بالضبط، سيد الكوند، فشرطة لندن الممثلة للملكة المتحدة والمرشّحة للفوز عليهم هذه المرة أن يثبتوا أنهم أفضل من شرطة استوكهولم وأيضا، وهذا هو الجديد، ستقام المنافسات في ميدان آخر ليس معشّباً كما كان معهودا ولكن على الرمال». يضحك الجميع وأنا أنتظر من الأستاذة *حنّا* وبعد انتهاء اللقاء أن تشرح لي ما قيل. يواصل سيد كوند «جيّد جدّاً فعوض أن يرموا الرمال على عيونهم يضعونها على أقدامهم».

-٢١-
في اتجاه نقطة الانطلاق

يأمرنا الكولونيل *ليندروث* بعد نظرة خاطفة لساعته وهذا ما اعتاد عليه في المدة الأخيرة. «سيداتي سادتي لننطلق من فضلكم فالسيارات في انتظارنا». أمسك بحقيبتي وأقوم.

في البهو أسمع «سيد *لازارو* أين ذهبت أمس؟ لم أرك؟» انشغلت عنّي. «ذهبت لأتدرّب أستاذة *حنّا* ودون توقّع بقيت أحضر عرضاً موسيقياً رائعاً في الشارع لفرقة موسيقية باهرة». «كم هذا رائع، أين حدث ذلك؟ في وسط المدينة؟». «نعم أمام مستشفى *سيرافيم* في تلك الساحة الكبيرة وقد اتبعت لأصل إليها خريطة المهندس، *أكسل*، الذي رسمها لما كنّا على متن السفينة الأمريكية». ترفع عيناها الزرقاوان العميقتان كالسماء وتتنفّس الصعداء «كم هو جميل، أنا مسرورة. سأقول لك شيئاً، هذا نسميه بالسويدية *سيرافيم*رلسرات، فحين تقول مستشفى *سيرافيم* يظهر لي وكأنك تتحدث عن لقبه». نضحك للحظات من هذا اللبس اللغوي.

لم أر في حياتي ناساً بهذا الكم. جاؤوا من كل صوب، في مجموعات صغيرة وفرادى وحلقات كبيرة. ففرحة الألعاب الأولمبية تسري في وجوههم. طابور غير متوقع خارج الملعب ومن المدخل الجنوبي تصل السيارات وفيها الرياضيين وأطفال بأعلام صغيرة. سيدات بملابس طويلة والشمس تحرق السماء والأرض. تبلغ الحرارة ٣٢ درجة مئوية.

على شاكلة الألعاب السابقة سيجرى مارثون هذه الدورة في مسالك ريفية مع اختلاف بسيط وهو أن تكون نقطة النهاية في نفسها نقطة الانطلاق،

وهي ملعب استكهولم. ٣٥٠ متر من التصفيق في الملعب. لفة الانعطاف ستكون في سولنتونا بجانب الكنيسة في شمال هذه المدينة وهي منتصف المسافة إذ عليّ أن أصلها مع الأوائل وفي ذات المنعطف أترك الجميع ورائي وليس أمامي سوى البرتغال. أربعون كيلومتر ومائتا متر هي مسافة المارثون. مسالك نظيفة ومجهزة بعناية فائقة حتى لا يعطّل غبار الطريق أحلام المتنافسين. كانت حركة المرور قد أغلقت ساعة قبل انطلاق السباق الكبير. تتزايد الجماهير في الملعب ومنهم من مازال يمشي ولم يصل. تصفيق وأناشيد وأصوات مختلفة وبأشكال متعددة تحيّي فرقها والمنافسين الآخرين.

أظهر الكولونيل بطاقات المشاركة لحرّاس مدخل الملعب الحديدي، وهو المدخل الأساسي الكبير. هناك سيارات واقفة. أحد المسؤولين عن التنظيم يبحث عنّي « فرنسيشكو لا زارو؟» يناديني كوند *بانيا غارسيا*. يعطياني ورقة لأوقّعها وفي الأثناء يتحدّثان. تفاجئني الأستاذة *حنّا* بقبلة كبيرة على خدي «اذهب للفوز سيد *لازارو* وأنا سأبقى في انتظارك في نقطة الكيلومتر ١٥و بجانبي السيد، جواكين فيتال، لنعطيك دعماً أكثر لتستطيع تخطّي بقية المسافة وتصل الأول لنقطة الوصول». أنظر لها بصمت. أقبّل جبينها *وأرمندو كوتزاو* يتظاهر أنّه لم ير شيئاً «شكراً الأستاذة *حنّا* أشعر بسعادة كبيرة لأنّك بجانبي». آخذ كيس القماش الأصفر الذي وجدته في الحديقة عندما كنت راجعاً من التدريب «هذا ما أريد وأنتظر. *حنّا*»

الدكتور، *جايم* موبريت دوس *سنتوس*، يضغط على ذراعي «هيا فرنسيشكو، لنذهب، عليك بالاستعداد فالوقت يمرّ» ويأخذني إلى حجرات الملابس والمسؤولون وبقية الزملاء يجلسون على المنصة الشرقية. كنت قد لبست القميص والتبان قبل المجيء وأيضاً الجوارب وحذاء السباق. أحدّق في مرآة طويلة تكاد تغطي حائط هذه الحجرة البيضاء بأكمله. أفتح الكيس وأعلّقه على مشجب أحد المقاعد وأخرج قارورة المرهم وأدهن أوّلاً رجليّ

لأنهما يحتاجان تدليكا أعمق لكثرة الشعر بهما وبعد ذلك ذراعي الأيمن فالأيسر، فالكتف والظهر والرقبة. رائحته قويّة وأيضاً رغبتي في الفوز. أخرج من الكيس منشفة بيضاء مربّعة من القطن وأضعها على رأسي لأحميه من الشمس الحارقة بالضبط في النقطة الوحيدة التي ليس فيها هذا المرهم.

أقف على ركبتيّ أمام المرآة وأخرج من جيب التبّان القديس كريستوفاو الذي كانت *صوفيا* قد أعطتني إيّاه. أقبله. أضمّ يداي وأصلّي لحمايتي وإلهامي في مهمّتي.

أكمل صلاتي وأقوم فأرى *أرمندو كورتزاو* و*جواكين فيتال* يجريان نحوي مذعورين فالقارورة مفتوحة على المقعد الخشبي. دقّ الناقوس الالكتروني. ١٠ دقائق تفصلنا على طلقة البداية. إنّه الاختراع السويدي الجديد لألعاب هذه الدورة. يصيحان في المدخل « *لازارو*، يا للهول ماذا تفعل؟ ألم تر درجة الحرارة في الخارج؟ فبهذا المرهم ستتعطل أكثر ولن يجديك نفعاً وربّما يكون خطراً على صحتك». يقولان لي وهما مضطربان أمّا أنا فقد كنت أسمع أنّ هذه الطريقة ساعدت كثيراً العدائين في الحفاظ على السوائل في أجسامهم.

«تعال هنا *أرمندو* وأفتح الحنفية» ودفعاني، دون رغبتي، تحت الماء الغزير والبارد. جواكين *فيتال* يذهب مسرعاً لأحد الصناديق الحائطية ويأتي بمنشفة محاولاً إزالة كلّ تلك المادة اللزجة التي تعبت الاستاذة *حنّا* في الحصول عليها ظنّا منها أنّها ستساعدني وتحافظ على الطاقة في جسمي وتغذّيه خلال السباق.

إنّها الساعة الواحدة وأربعين دقيقة ظهراً والسباق على وشك الانطلاق. ليس هناك وقتاً لإضاعته. أسرع متوترا حتى أصل مسار السباق. لست جاهزاً تماماً. مازالت المادة اللزجة في جسمي. هذه رغبتي لا تضرّ أحد ولكن تريحني أنا. ٦٨ عدّاء كلّهم تقريباً برؤوس مغطاة يقفون بالقرب من

خط الانطلاق، بالضبط أمام المنصّة الملكية الملآنة، ولا مكان شاغر فيها، ينادى على الأسماء تباعا بلهجة سويدية فرز. س. يش. كو لاز.ارو. هذا اللقب البرتغالي الوحيد المشارك، فمتياش كرفاليو، لم يغادر لشبونة. كثيراً من الفرنسيين والروس. وأيضاً عدد لا بأس به من بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأمريكية. فقط رجل واحد من اليابان. أعضاء من اللجنة المنظمة أحاطوا بنا ببناطيل بيضاء وأحذية مخططة وسترات سوداء وقبعات من السعف وبخيوط أيضاً سوداء، لم ينس شيئا. كل نقطة مسطر لها بأدق التفاصيل. الساعة ١٣ و٤٥ دقيقة التحضيرات الأخيرة. الساعة ١٣ و٤٨ دقيقة طلقة البداية، الرقم ٥١٨. هذا أنا أنطلق.

-٢٢-

هارباً، لا أحد يلحق بي

على وتيرة واحدة نعدو. كتلة من الرجال على أمل الفوز وأنا أكثرهم جميعاً. إلى حدّ الآن لم يخسر أحد ولم يفز أحد. الشمس تحرق والمنظمون يتعرّقون. ناس على الحافّة يمسكون بقبّعاتهم ويشجّعوننا ونساء يحافظن على مظلات تحمي زينتهن. كلّ شيء نابض بالحياة. نشوة جماعية. أعلام ترفرف في المدارج الشمالية العليا. النسيم لا يتحرك ولكن أنا أجري. برجان؛ واحد للساعة والثاني فوقه الصحفيين يوجهون آلات تصويرهم لمرور العدائين من المنعطف الأول. تركيز كبير فعبور عادي وتصفيق وهتافات بلغات عديدة. في المنعطف الثاني يظهر الملعب. أحد العدائيين ضربني من جانبي، بعفوية دون شك. المجموعة تتوزّع الآن على حوالي مائة وخمسين متر في الأول السويدي، *أغلغرين*، وقريباً منه الفنلندي، *كولهماينن*، يتقاطعان في باب المارثون. منعطف على اليمين مليء بالمتفرجين. يصلون إلى فاليالفغن. أصل أنا مباشرة بعدهما ببعض الثواني لا غير، أراقبهما ولا أتركهما يبتعدان. أركّز كثيراً في خطّ مسار السباق وألمح أمامي على الجرانيت الرمادي العلم السويدي مرسوماً بالأزرق السماوي والأصفر الأرضي.

يسارا، بجانب الخط الذي رسمته اللجنة الأولمبية المنظمة يقف الجمهور، إذ يستطيع رؤيتنا عن قرب ولكن دون لمسنا، ففي الكيلومتر الأول تجري الأمور بهدوء وبمستوى مرتفع وفي الكيلومتر الثاني نفس العدائين الشماليين في الأمام بحماس كبير من مشجّعيهم، ولكن أيضا يصفّقون لي دون أن يعرفونني وللبقية أيضا، وربّما، بعد ثلاث ساعات، تتغيّر المعطيات.

بعد ذلك يظهر الإيطالي سبيروني وخلفه الفرنسي *بواسيار* واثنان من جنوب افريقيا، *جيتشام*، وماك أرثر. نصل النقطة ٦١٣ التي كانت مكان تسجيلي في يوم تقديم العدائين هنا في هذا الملعب. *ماك أرثر* ولد في إيرلندا الشمالية في، درفوك، ومنذ ١١ سنة مضت وعندما كان عمره عشرين سنة هاجر مرفوقاً بأبويه وثلاثة إخوة. خسر شغل مهمّ كان يمكنه من سداد مصاريف حبّه للعدو في وطنه الأمّ. كان يعمل رجل شرطة في آخر نقطة في افريقيا إذ لم يستطع المشاركة في الألعاب الماضية في لندن منذ أربع سنوات والآن ها هي أمامه فرصة الحياة. الآن أو لن تكون أبداً.

بجانبي يعدو أربعة آخرين وخلفهم الياباني وحيداً، مثلي تماماً.

وبعد بعض الكيلومترات، ربّما خمسة، نصل محطة المراقبة بستوكسوند فالفريق الذي يتصدّر السباق أدركها في الساعة الثانية و١٧ دقيقة و٢٠ ثانية ظهرا. ألمس ذراعي الأيسر وأجري. أتعرّق والمادة اللزجة تتبخر دون أن تترك ذراعي. رجلان سخنتان. أمسح جبيني، يتقطّر شاربي. أجري وأجري والشمس فوقنا وهي غير معهودة في مثل هذه الأيام. جهنّم في مسار السباق فالأرض، وإن كانت قد رشت بالماء من قبل، فإنها قد جفّت وبدأ الغبار يظهر. أسعل وأدير رأسي للخلف قليلاً وأواصل وأستعيد الوقت الضائع وأجري نحو الخلود.

الجرانيت تحت قدميّ يكاد يشتعل والشمس لا ترحم وبشرتي السمراء تحاول التأقلم مع الحالة. أفتقد الأوكسيجين ولكن أجري برغبة كبيرة. قطعت عشرة كيلومترات وفي الكيلومتر ١٥ محطّة المراقبة. بتورابرغ الفنلندي يقود السباق. إنّها الساعة الثانية و٤٢ دقيقة و١٩ ثانية ظهراً. ما زلت أراه قريباً، عليّ أن أسرع الخطو وأشعل الإرادة وألتحق به. أريد أن أكون شخصية ما، أريد كل شيء، أريد الذهب ولا شيء غير ذلك يعنيني. ذراعاي يلتصقان بجسدي «اجر فرنسيشكو، أنت الأقوى أيها الشابّ أسرع،

أسرع» يصيح، جواكين فيتال، الذي كان هنا واقفاً في نقطة استراتيجية ممتازة. أعطاني الماء. أتلذذه دون أن أبلع قطرة واحدة. فالمرهم كأنّه جسم بداخلي. روحي تنتفض والذين أمامي بدأوا في خسران السوائل، والبقية لا أكاد أراهم. هم في المؤخّرة، وأغلب الظن تائهون وربما منهم من انسحب ولكن أنا لست كذلك، أنا *لازارو* «أين أنت أستاذة *حنّا*؟». ألهث وجواكين *فيتال* يجري لبعض الأمتار لجانبي. «توقّف هنا الياباني، *كانكوري*، فقد استنفذ قواه. كانت الأستاذة تحضّر له عصير ليمون وذهبت معه إلى الحديقة هناك ليسترد أنفاسه».

قبل أقلّ من ٥ كيلومتر من المنعطف في سولانتونا أتذكّر صوفيا. لابدّ أنّها في كنيسة بنفيكا تصلّي لأجلي في تلك الكنيسة حيث كنّا نذهب كل الآحاد للقدّاس. هي تصلّي وابننا يصفّق لي. سأفوز بالميدالية الذهبية من أجله ومن أجل البرتغال. تجري معي هنا ملايين من القلوب، وكثيراً من الأرجل. أتنفّس أيضاً من فمي هواء ثقيلاً وجافاً، يبدو أنّه خال من الأوكسيجين. العالم ضدّي يحاول خنقي ولكني لا أتركه.

-٢٣-
انعطاف دون رجعة

جيتشام واحد من العدائين الجنوب افريقيين يتجاوز الفنلندي، فهذه الأرضية لا تطاق لرجل الثلوج. إنّها الساعة الثالثة تماماً و٤٠ ثانية. لا يتوقفون للاستراحة أمّا أنا ففي حين كنت أضاعف استقامة ظهري مستعدّاً للعودة للملعب أتوقّف للحظات. يعطوني ماء. أنا مرهم وماء الآن. وحتى وإن كان رأسي مغطى فإنّ مخّي سينفجر. أشرب جرعتين وأبصقهما. أنظّف فمي بيدي اليمنى. وأعود للسباق، فأنا ضمن العشرين الأوائل، أرى آخرين توقّفوا لشرب الشاي أو عصير الليمون مثل ذلك الياباني. المرهم لا يفارق جلدي، إنّه ساخن، ساخن جدّاً، الهندي، *طوانيما*، يجري على مهل ويسترجع مكانه. يريد أن يصل إلى الأمام، وسابعاً يأتي السويدي *أهليغرن*. ترك الشمس والتعب ينتصران عليه، يجري بطيئاً وقد تجاوزه آخرون. مرور جديد *بطوربرغر* والآن في الاتجاه المعاكس. خمسة وعشرين كيلومتر جريناها والآخرون في الجهة الثانية خمس وعشرين لإتمام السباق، هذا إن استطاعوا.

الفنلندي لم يستطع أن يجاري الجنوب افريقي الذي لم يعط هدنة للشمس. لم يقم، لا يستطيع أكثر. يتوقّف في آخر الخطّ والألم في وجهه. جيتشام و*ماك أرثر* في المقدّمة وخلفهما الأمريكي، *ستروبين*. السويدي، *سيج*، يلقى التصفيق الكبير من أبناء وطنه، إذ يشجّعونه وينادون باسمه وباسم بلده. أطباء وسيارات إسعاف، كلّهم يراقبون عن قرب المارثون. زملاء شعروا بألم من جرّاء الحرارة. أشعر بالدوّار فأنزع غطاء رأسي. أنا بخير أنا بخير. أجري وأجري. لن أتوقف أبداً.

-٢٤-
دائماً أريد

أعدّ هناك في الأسفل، تقريبا، عشرين عدّاء كانوا قد انسحبوا. لم يستطيعوا المواصلة ولم يقاوموا. تحطّمت أحلامهم وأحلاهم بلدانهم وأحلام كلّ أولئك الذين ينتظرونهم هنالك على مدارج الملعب الأولمبي ويريدونهم أن يصلوا فائزين في الطليعة وأن يحنوا رؤوسهم أمام جلالة الملك لتوسيمهم بالميدالية. إنها خيبة أمل. عداؤون أقوياء تدرّبوا جيّداً واجتازوا العديد من الاختبارات ولهم دعم كبير ومع ذلك فشلوا. أنا ليس عندي مدرّباً ولكنّي أريد أن أفوز، عليّ أن أفوز، ليس عندي مستوى دراسي ولكن أحبّ أن أتعلّم. عندي ملابس قليلة ولكن أعتزّ بها، ليس لديّ معرفة بالصحة ولكني أحتاط دائما بالوقاية. تتمايل رجلاي وتجتازني ثلاثة صفوف. أضغط على صدري وأفرك قميصي على جلدي عساه يشرب المرهم ولكن دون جدوى والعرق الحلو المتصبب من جبيني يلتقي بملح دموعي وتجتمع المرارة.

يأتي إلى جانبي شابّ من لجَنة التنظيم ويسألني إن كنت على ما يرام فأجيبه برفع إبهام يمناي إلى الأعلى ولكن جسمي لم يتركني أكذب. أختنق في هذا الهواء الحارّ وتحتكّ رجلاي ببعضهما. أسقط أرضا ويسيل الدم من معصمي. يساعدني الشابّ السويدي على النهوض. أواصل. أصل الكيلومتر خمسة وعشرين. أسمع جواكين *فيتال* « فرنسيشكو، هل أنت بخير؟ إلى الأمام تقوّ فمازال القليل، التحق بهم وأثبت لهم أنّك *لازارو* الكبير. هيا البرتغال في انتظارك» «نعم. نعم» لا أرى الأستاذة *حنّا* فالنظر

خذلني. أمسح عينيّ بقميصي. بصري مشوّش وصارت الرؤية رماديّة في شمس هذه الظهيرة الساطعة. تأتيني من الأمام هبّة ريح حارّة فأسقط. لا أحد حولي ويسيل خيط من دم في ركبتي اليسرى. بجانبي يمرّ عدّاء يجري وغيره. أقوم ووركي يتمايل كثيرا. لا أستطيع التحكّم في توازني ولكن أجري. الكيلومتر ٢٧ أصبّ الماء على رأسي. «إما أن أفوز أو أموت». لا أدري ماذا سأفعل بذراعيّ فمهما ثقيلان جداً ولو أستطيع أقصّهما وأقصّ الرأس ولا أترك إلا الرجلين لأجري بهما واجتاز الجميع وأصل الأوّل وأفوز. الكيلومتر ٢٨، هبّة أخرى من الهواء الحارّ تفقدني توازني وتوقعني أرضاً مجدّداً ولكن لم يسل الدم هذه المرة. لست أنا من ينافس لغير الفوز أشعر بالجرانيت المؤلم يدغدغ أسفل قدمي. أصبّ كأس ماء على نصفي الأسفل. الكيلومتر ٢٩. بقي كيلومتر١١. يلا، يلا أنت تستطيع، أنت تستطيع أعتقد أنّهم يصفقون لي ولكن سمعي لا يجاوبني، أشكال متداخلة أراها أرض وسماء رمادية، ظلام في شمس ظهيرة صيف في السويد، شيئاً ما ليس على ما يرام، ألمس ذراعي الأيمن بذراعي الأيسر ولا أشعر بشيء. رجلاي لا يطيعانني، لماذا لا يوجد ضجيج؟ لماذا هذه الحقول ليست خضراء؟ أشكّ في كل هذا ولكن ليست عندي إرادة. لا أفوز ولكن أيضاً لا أموت. أنا للخلود.

-٢٥-
خلاصة ـ مائة سنة بعد ١٩١٢

وإلى الأبد، أيضاً، سيذكر اهتمام وعناية السلطات السويدية وهبّتهم لنجدة *لازارو* في محاولات جسيمة لتركه متمسكاً بالحياة.

ففي شهادة موقّعة من رئيس الأطبّاء بمستشفى *سيرافيم* وموجّهة إلى لجنة التحكيم الدولية للألعاب الأولمبية بالسويد دورة ١٩١٢ الدكتور، *أرنولد جوزافسون*، أحد أفراد الفريق الطبي بستوكسوند، ينصّ في التقرير بأنّه خلال السباق تعرض العدّاء لحالات عديدة من ضربات الشمس وواحدة منها، وللأسف، انتهت بشكل قاتل.

«*لازارو* المتسابق البرتغالي حمل إلى مستشفى *سيرافيم* حوالي الساعة الخامسة والنصف عصراً في سيارة إسعاف مرفوقاً بالدكتور، *فرياس*، أحد أطباء الخدمة. فخلال السباق شوهد *لازارو* يجري في هضبة أوفرجرفا في طريق العودة إلى الملعب؛ سقط بعض المرّات ولكنه نهض وواصل من جديد وأخيراً سقط أرضاً وبقي هناك. وما إن وصلت المعلومة إلى الطاقم الطبي في سيلفردال فإنّ الدكتور المساعد، *طورال*، تحوّل على عين المكان حيث كان المتسابق ملقى، فقدّمت له الاسعافات الأولية اللازمة. بقي الدكتور إلى جانبه كلّ الوقت حتى وصول سيارة الاسعاف للمستشفى. فالدكاترة *فرياس وليلجنروث*، وهما مسؤولان رسميان ضمن البعثة الطبية، وصلا مباشرة بعد ذلك».

إنّ الوسائل البشرية الطبية والتقنية كلّها أثبتت دون شكّ المجهودات الجبّارة للجنة المنظمة لإنقاذ *لازارو*. «فقدان الوعي» هي الحالة التي لم

يستطع فريق الاسعاف الطبي حلّها. وكانت هذه المعلومة قد نقلت هاتفياً للمسؤولين في الملعب آنذاك.

«ما إن وصل المصاب إلى المستشفى فإنّ وزير البرتغال، *أنطونيو فيجاو*، وكثيراً من الرياضيين البرتغاليين وغيرهم ممن علموا بهذه الفاجعة الأليمة جاؤوا ليقفوا إلى جانبه في سريره في المستشفى». فهذا البيان وإن لم يتجاوز الجانب الطبّي التقني فمن الثابت أنّ *لازارو* ظلّ فاقدا للوعي وحرارة جسمه بلغت ٤١,٢ درجة وكل المعطيات رجّحت ضربة شمس.

فالدكتور، جيفرسون، أعلم مباشرة هاتفياً بهذه المعطيات مكتب أمانة الملعب الأولمبي مشيراً أنّ «الحالة صعبة للغاية وممكن أن تنتهي بفاجعة».

«بالرغم من المجهودات الجسيمة والعناية الشديدة والمستمرة فالحياة لم تسعفه. مرّة أخرى يعلو الجانب الإنساني للطبيب السويدي». المسكين لم يكن بالإمكان إنقاذه و*لازارو* توفىّ حوالي الساعة السادسة صباحاً من اليوم الموالي ١٥ تموز/ يوليو ١٩١٢.

عند وصوله إلى المستشفى، في التّاسعة صباحاً، أعلم الدكتور جوسفسون ما حدث للضحية للزائرين البرتغاليين ولاحقاً، أعطى مباشرة، لمدير قسم البرق السويدي بلاغ «التشريح الطبي الذي أتمّه السيد هانسشان الموظف بهذا المخبر».

ولخّص واعداً «نظراً لفاجعة هذا الموت الأليم» وبعد الاتصال ببقية الأطباء الذين أشرفوا على سباق المارثون سنبعث إلى اللجنة الدولية «مذكرة خاصة».

تحقّق الوعد وبعد أربعة أيام، في ١٩ تموز/ يوليو ١٩١٢ كانت الرسالة تنبّه إلى أنّه مستقبلاً لا يمكن لمسابقات مثل هذه أن تجرى تحت أشعة الشمس.

وفي اليوم الموالي، ٢٠ تموز/ يوليو ١٩١٢ كانت المناسبة التأبين

المهيبة لروح فرنسيشكو *لازارو* بأمر من القصر الملكي وتحت إشراف ولي العهد، أمير السويد.

جثمان *لازارو* نقل بعد شهرين إلى لشبونة فكان في استقباله جمهور غفير، اعترافاً بجهده ورافق الجثمان حتى مقبرة بنفيكا حيث وضعت شاهدة طويلة على قبره وفي أعلاها صورته في شكل فريد.

أنجبت زوجته بنتاً ولاحقاً ذهبا ليعيشا في الموزمبيق. رحلت ابنتها إلى البرازيل لتعيش مع بعض الأقارب وفي لشبونة تمّ التعرف على حفيدة *للازارو* تعيش بالقرب من لشبونة وهي طبيبة.

في ٨ جويلية ١٩١٢ فازت السويد بالميدالية الذهبية أمام أنجلترا. وكان ذلك تقديراً جيّداً حيث خرج البلد المنظم أكبر مستفيد في الدورة الخامسة للألعاب الأولمبية في العصر الحديث بخمس وستين ميدالية في المجموع، زائد ميداليتين على الولايات المتحدة الأمريكية، بلد جيم ثروب، الفائز بجائزة القفز الخماسي والعشاري، والذي صنّفه جلالة ملك السويد بكونه «الرياضي الأكمل على مرّ العصور».

في ١٤ تموز/ يوليو ١٩١٢ كان كيندي كاين *ماك أرثر* حاملاً ألوان جنوب أفريقيا إذ وصل الأول بتوقيت ساعتين و٣٦ دقيقة و٥٤,٨ ثانية. كانت يداه مرفوعتين وطوق من الورود يلفّ رقبته احتفالاً بالرقم الأولمبي.

وبعد مرور مائة سنة، يوم ١٤ تموز/ يوليو ٢٠١٢، على الساعة ١٣ و٤٨ دقيقة، فإنّ سعادة سكريتير الدولة البرتغالية للرياضة والشباب، وفي مبادرة مشتركة مع سفارة البرتغال في السويد حضر في المنصّة الشرفية في ملعب استكهولم انطلاق ذكرى المارثون، المسابقة التي استطاعت الدورة الخامسة منها في السويد أن تجمع ٦٥ ألف مشارك، منهم ٦٨ برتغالياً، كانوا قد هتفوا قبل الانطلاق بروح وانفعال نشيد البرتغال فأسالوا دموع رئيسة المجلس البلدي السويدي باستكهولم، السيدة *مرغريتا بجورك*.

إنّ عضو الحكومة البرتغالية وممثّل السلطات السويدية دشّنا بهذه المناسبة، فوق الأرضية المئوية، نصباً تذكارياً تخليدا *لفرنسيشكو لازارو* مكتوبا بالسويدية والبرتغالية، جنباً إلى جنب، ليبقى حيّاً وحاضراً في باب المارثون، في ملعب استوكهولم، مرور ذلك البرتغالي المتميز بالسويد. خالداً للأبد.

ولاحقاً، في نفس العشية، مشى الدكتور، ألكسندر ميشتر، بعض الكيلومترات في المسار الذي جرى فيه فرنسيشكو حتّى النقطة التي سقط فيها للمرة الأخيرة.

إنّ ملعب استوكهولم يتمتّع بسمعة كبيرة في مجال تنظيم أقدم رياضة في العالم ومازال يقدم خدماته إلى الآن ويحتضن باستمرار تنظيم أحداث رياضية وثقافية. وبرج الساعة يوجد بالمتحف الأولمبي الذي بدوره يحتفظ برسم *لفرنسيشكو لازارو* مهدى من مجموعة الرياضيين البرتغاليين الذي شاركوا في المارثون.

فالفقمة الحجرية مازالت تسيل ماء من فمها في مدخل البرج الشمالي دون أن تبلل شارب *لازارو*.

«الياباني المختفي» هكذا أطلق عليه، كان قد رجع بعد أربع وخمسين سنة إلى السويد في سنة ١٩٦٦ وأكمل الكيلومترات التي تنقصه. توفى سنة ١٩٨٣. وقد تمّ الاحتفال بسيسو *كاناكوري* كأب المارثون الياباني، في ٢٠١٢ في العاصمة السويدية بحضور أعضاء حكومة وبرلمان من بلده. أمّا حفيده فقد قطع هذا المارثون وربما أكمله.

أما كينيدي كاين *ماك أرثر* وفي لفتة اعتراف من افريقيا الجنوبية التي تخبطت في الحرب الثانية الأنغلو. بووار (١٨٩٩ـ١٩٠٢) فلم ينس في ايرلندا الشمالية إذ يوجد له تمثال يخلده في درفوك. وفي الأثناء، وخلال العام الموالي للمارثون، سقط من على دراجة ومنع من العودة للمنافسات.

فكانت سنة ١٩١٢ سنة الوداع ولكن بمجد عظيم. توفى في البلد الذي حضنه سنة ١٩٦٠.

ولم يستطع أيّ سبّاح أن يتحمّل المنافسة الحرّة للمائة متر سباحة في الألعاب الأولمبية باستكهولم ١٩١٢ سوى صاحب الذراعين الخرافيتين ولاعب السيرف الماهر القادم من هاواي، كاهاناموكو، «الدوك». فقد كان دائماً يفضل الألواح الخشبية مثل تلك التي تزحلق عليها حتى صار نحيلاً كأنه مسواك. له اليوم نصب تذكاري في أواهو على شاطئ وايكيكي.

إنّ ولي العهد السويدي الذي أمر بالقيام باستقبال بهيج على روح فرنسيشكو *لازارو*، صار الملك غو*ستافو أدولفو السادس* سنة ١٩٥٠. توفى في ١٥ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٣ وهو مسجى في المقبرة الملكية في شمال استكهولم في حديقة هاغا حيث يعيش الآن جلالتهما، ولية العهد فيكتو*ريا ديزيراي* التي كانت أول امرأة تشغل منصب رئيسة حكومة في العائلة المالكة الحالية، عائلة بر*نا*دوت (من ١٨١٨) والأمير وستلينغ.

أمّا في ١٤ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٢ فإنّ سعادة وزير الدولة البرتغالية للرياضة والشباب، الدكتور الكسندر ميشتر، تحوّل مجدداً إلى السويد مرفوقاً بأحد أفراد عائلة فرنسيشكو *لازارو* وهي حفيدته *لاوريندا لايتا*و في تخليد لذكراه فتمّت زيارة الملعب الأولمبي، ومدرسة هيدفيك إلينورا، ومستشفى *سيرا*فيم، والسلطات الرسمية والمحلية السويدية ممثّلة في رئيسة المجلس البلدي باستكهولم، مرغر*يتا* بجو*رك*، وحاكم أوبسالا، بيتر *أغارت*، سعياً لتنفيذ نفس الفكرة والهدف من خلال تخليد فرنسيشكو وتذكر إرادته، وشجاعته، وصفاته التي لا تحصى والتي جمعت بين البرتغال والسويد. البلدان اللذان لم ينفصلا أبداً.

الكاتب:أندريه أوليفيرا

من مواليد مدينة براغا شمال البرتغال. حاصل على الماجستير في الاقتصاد الدولي من جامعة مينيو(البرتغال). يعمل في السلك الديبلوماسي منذ سنة ٢٠٠٥.

استطاع خلال مهمته الديبلوماسية الحالية في سفارة البرتغال في استوكهولم من أن يجمع معلومات عديدة ومن مصادر مختلفة في السويد والبرتغال حول مشاركة العداء البرتغالي فرنسيشكو *لازارو* في الألعاب الأولمبية في استوكهولم سنة ١٩١٢ التي مثلت الحضور البرتغالي الأول في هذه الألعاب في شكلها الحديث، والتي انتهت بفاجعة موت العداء المذكور، فانتهى طموحه ولكن بقي خالداً ورمزاً في تاريخ هي هذه الرياضة على المستويين البرتغالي والأممي. ومساهمة في إحياء روحه بعد مرور ١٠٠ سنة على الواقعة (٢٠١٢) ألف الديبلوماسي أندريه أوليفرا

فهرس المحتويات

"ماراثون الخلود" قصة رومانسية تعتمد اسلوب الرواية التارخية متتبعة إلى حد كبير حلم العداء البرتغالي العالمي فرانسيسكو لازارو، الذي بدأ حياته يعمل كفني تصليح سيارات في لشبونة. في عامة الثاني والعشرون، بدأ لازارو يتطلع لتحقيق طموحة بالفوز في المارثون الأولومبي المقرر إقامته في ستوكهولم عام ١٩١٢.

منذ وصوله إلى العاصمة السويدية وحتى غادرها إلى الخلود في الكيلومتر ٣٠ من سباق حياته، لازارو يحدثنا عن رحلته بطريقة مبتكرة في رصد الأبعاد المختلفة لواقعه. في حياته كمهاجر وعاشق وعدّاء طموح. بعد خمسة أيام من بدء السباق ينهار لازارو أمام طموحة في يوم ٢٠ من يوليو ١٩١٥، ويقف العالم إجلالاً لجهوده فتضاء سماء ستوكهولم بالأنوار تخليداً لذكرى هذا العداء الذي لم يستسلم حتى لحظاته الأخيرة.

ISBN 978-9948-18-849-0
9 789948 188490

دار نون للنشر